عصر يضطرب

شهد النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى انحطاط الخلافة العباسية ، وانهيار سلطان الخلفاء ؛ فمنذ قتل المتوكل سنة سبع وأربعين ومائتين بيد الأتراك ، الذين جاء المعتصم بهم ليكونوا عضده ، بدل الفرس والعرب ، شعروا بقوتهم ، واعتزوا بتلك القوة ، واستبدوا بالأمر كله ، يولون من يستطيعون الحجر عليه ، والاستئثار بالملك دونه . ولم ينفع الخلافة ، ولم ينهضها من كبوتها أن استطاع بعض الخلفاء أن يستعيد قليلا من المجد الغابر ، ويحفظ هيبة ذلك الملك العتيد ، فإن الأمر ما كان يلبث أن يرجع إلى خليفة ضعيف ، تعود معه الحال إلى أسوأ مما كانت عليه ، وزاد الأمر شراً إلى شر ظهور المنافسات بين ذوى النفوذ ، فكان كل يكيد للآخر شر كيد ، حتى يورده موارد الهلكة ، من غير نظر إلى مصلحة الأمة . وما إن آلت الخلافة للمقتدر سنة خمس وتسعين ومائتين ؛ وكان صبيا — حتى أصبحت أمه صاحبة الحول والسلطان تعين الوزراء ، وتقبل استقالاتهم وتعزلهم إذا أرادت . ولم يكن اختيار الوزير مبنياً على جدارة أو استحقاق ، بل كان صاحب الحظوة هو من يدفع أكبر رشوة ، ويتعهد بأن يقدم لأم الخليفة ، ورجال القصر وكبار المستخدمين أعظم الأرزاق ، فإذا وصل أحد إلى هذا المنصب ، صارت يده ويد رجاله وأولاده مطلقة ، يصادر من يشاء ، ويسجن من يشاء ، ويعذب من يشاء ، فإذا عجز عما تعهد به ، وجدت الوشاية سبيلها فيه ؛ فأقيل من منصبه ، وجىء بغيره ، ممن قدم أكبر العروض ، ولو كان غير صالح للوزارة ؛ فكانت خلافة المقتدر ، كما قال المرحوم محمد الخضرى بك ، « فى جميع أيامها شر أيام على الدولة العباسية ؛ لأنه حكّم فيها النساء والخدم ، وبذّر فى الأموال ، وكان يعزل الوزراء ، ويولى غيرهم ، بما يقدم له

obeikandi.com

ولأمه ولقهرمانته ولخدمه من الرشا ، ولا يأخذ الوزارة بالرشوة إلا من هو عازم على الخيانة ليحصل على ما دفعه ؛ فكان جل هم الكثير منهم أن يسد حاجته أولا ، ثم حاجة من ولاه ، لايسألون أجاءت تلك الأموال من ظلم أو عدل ، وهذا نهاية الفساد فى الدولة ، وهو المؤذن بخرابها واضمحلالها » . وانتهى الأمر بقتل المقتدر ، نتيجة للمنافسة التى كانت بين اثنين من كبار الدول ، وهما : مؤنس الخادم القائد العام للجيوش ، والوزير الحسين بن القاسم ، إذ ضربه فى المعركة أحد جند مؤنس ، فسقط الخليفة على الأرض ، وذبح ، ورفع رأسه على خشبة ، والجند حوله يكبرون ويلعنونه ، وقد أخذ جميع ما عليه حتى سراويله ، وترك مكشوفا إلى أن مر به رجل ستره ، وحفر له فى موضعه ، ودفنه ، ولم يفكر فيه أحد بعد .

وأجلس على عرش الخلافة من بعده القاهر ، سنة عشرين وثلاثمائة ، وكان شريراً خبيث النية ، فكاد له رجال دولته ؛ حتى خلعوه ، بعد سنة وستة أشهر من ولايته .

وأتى القواد والخدم بالراضى بن المقتدر ، وأصعدوه إلى سرير الملك ، وظلت الحال فى عهده تزيد خللا واضطرابا ، فكان من حوله من كبار رجال الدولة يتنافسون ويقتتلون ، وانتهى الأمر بأن استدعى الراضى محمد بن رائق أحد عماله ، ومنحه لقب أمير الأمراء ، وأمر بأن يخطب له على جميع المنابر ، فانتقل إليه السلطان الفعلى فى البلاد ، وصارت الأموال تجبى إليه ، فيتصرف فيها كما يريد ، ويطلق للخليفة منها ما يراه .

كان هذا المنصب الجديد مثار الطمع فى نفوس الأقوياء من رجال الدولة ، تدور حوله المؤامرات ، وتنصب له الشراك ، وانتهت مدة الراضى فى منازعات سياسية بين هؤلاء الطامعين ، وكذلك انتهت من بعده مدة الخليفة المتقى لله ، الذى لجأ إلى ناصر الدولة بن حمدان فى إمارته بالموصل ، وخلع عليه لقب أمير

الأمراء سنة ثلاثين وثلاثمائة . وقد حارب ناصر الدولة وأخوه سيف الدولة إلى جانب المتقى ، ولكن توزون أكبر قواد الديلم استطاع أن ينال منصب أمير الأمراء ، وقد حلف للمتقى أن يكون طائعاً له ، ثم لم يلبث أن سمل عينيه ، وخلعه ، وأقام مقامه المستكفى بالله ، وفى عهده دخل معز الدولة بن بويه بغداد سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة ، وحلف يمين الولاء للخليفة ، وتولى هو السلطنة فى بلاد العراق . ويعد هذا اليوم تاريخ سقوط السلطان النهائى من أيدى الخلفاء ، وصيرورة الخليفة رئيساً دينياً ، لا أمر له ولا نهى ولا وزير ، وإنما له كاتب يدبر شئونه المالية ، وصار الأمر لمعز الدولة ، يتخذ لنفسه من الوزراء من يشاء .

ولم يبق المستكفى فى الخلافة بعد دخول معز الدولة سوى أربعين يوما ؛ إذ اتهم بأنه يدبر لخلع السلطان ، فدخل عليه اثنان من أمراء الديلم فتناولا يده ، وظن أنهما يريدان تقبيلها ، فمدها إليهما ، فجذباه عن سريره ، وجعلا عمامته فى عنقه ، وساقاه ماشياً إلى دار معز الدولة ، فاعتقل بها ، ونهبت دار الخليفة ، حتى لم يبق بها شىء ، واستدعى المطيع لله ، وولى الخلافة ، وظل ، حتى خلع سنة ثلاث وستين وثلاثمائة ، لا نفوذ له ولا أمر ، وإنما السلطان والسطوة لبنى بويه .

كان ضعف الحكومة المركزية فى بغداد سبباً فى تفكك أجزاء هذه الإمبراطورية المترامية الأطراف ؛ فكان كل حاكم يطمع فى أن يستقل بما تحت يده ، وكل قوى يبغى أن يؤسس له ملكا فى ناحية من نواحى هذا السلطان العريض .

ورأى عبد الرحمن الناصر ما آلت إليه حال بغداد ، فسمى نفسه أمير المؤمنين ، وصارت بلاد إفريقية للعبيديين ، وكان الحاكم منهم يلقب بأمير المؤمنين أيضاً ، ومصر والشام للإخشيديين ، والجزيرة وحلب والثغور للحمدانيين ، والعراق للديلم ، وعمان وبلاد البحرين واليمامة للقرامطة ، وفارس والأهواز والجبل والرى لبنى بويه ، وخراسان لآل ساسان ، وكثيراً ما شبت الحروب بين بعض

هؤلاء الولاة و بعض ، مما أضعف قوتهم جميعاً ، فاستهان بأمرهم الروم ، وأغاروا على الثغور الإسلامية ، ونهبوا ما فيها وسبوا ، وكثيراً ما كان أهل هذه الثغور ، يقاسون العنت والمشقة ، فيلجئون إلى بغداد ، يستغيثون فلا يغاثون ، فيعودون من جديد ، لتحمل عذاب شديد .

ولقد تغلب سيف الدولة ابن عم أبى فراس على الثغور الإسلامية ، وأخذ على عاتقه صيانتها ، فكان ينال من الروم ، و ينالون منه ، ولكن أنى له أن يرد عدوا ، كانت الخلافة كلها تعنى به وتستمد له ، ومع ذلك لا نستطيع أن ننسى ما قام به هذا القائد الجرىء ، من دفاع عن تخوم الإسلام وحدوده ، وأنه كان عقبة كأداء فى سبيل العدو المغير .

وسوف نرى أثر تلك الحالة السياسية فى حياة أبى فراس وشعره ، فيما سنذكره فى الفصول القادمة .

---

obeikandl.com

بنو حمـــدان

لى تغلب ، وهذ جدول (١) بهم .

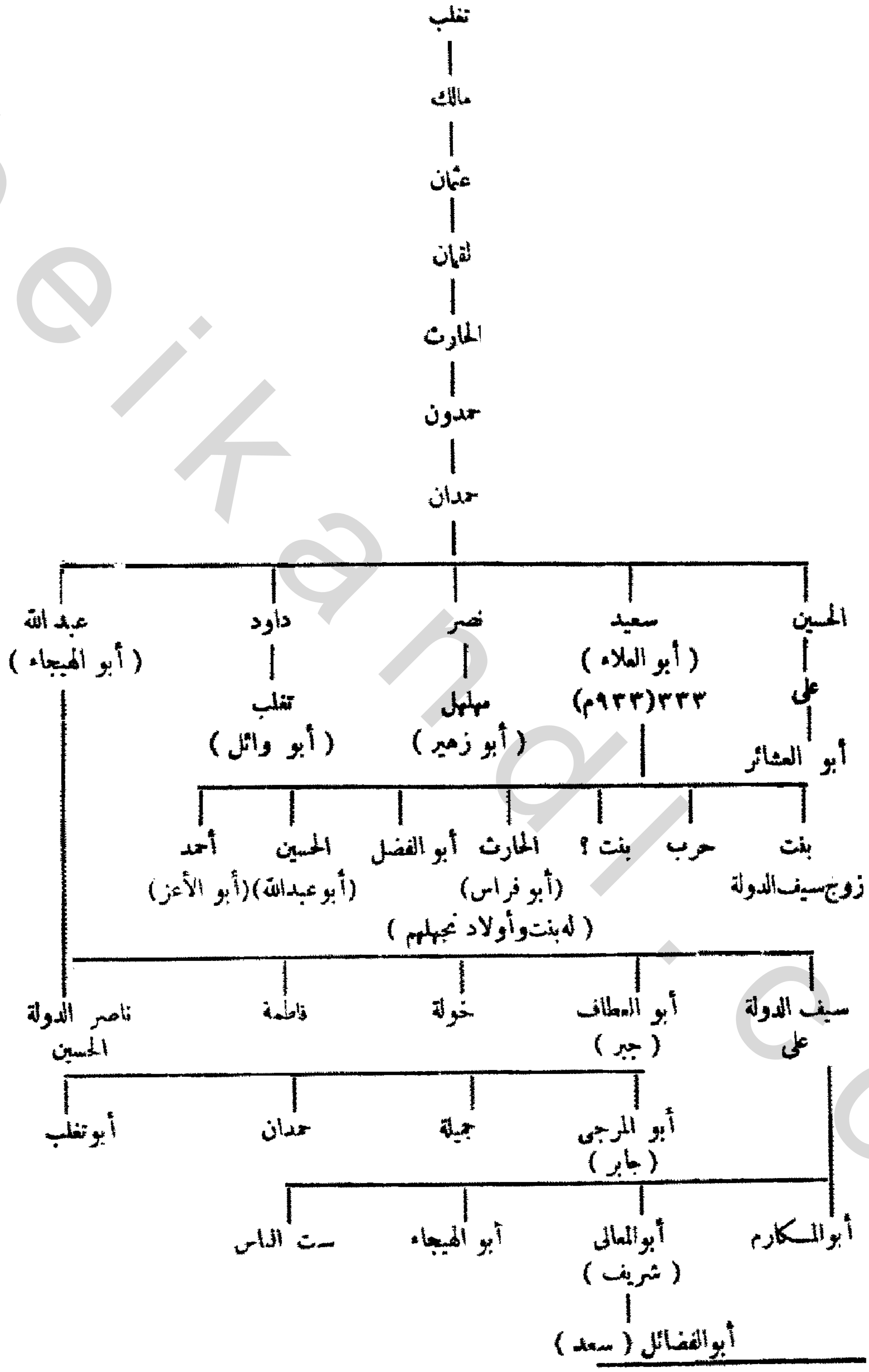

(١) هذا الجدول من بلاشير فى كتابه عن المتنبى ص ١٢٥ ومن ديوان أبى فراس

obeikandi.com

أسرة تنهض

تنحدر الأسرة الحمدانية من أصل عربى صريح ، هو قبيلة تغلب بن وائل ، وكانت قبيلتا : تغلب وبكر ، أعظم قبائل ربيعة شأنا فى بلاد العرب لعهدها القديم[1] ، وعرفت قبيلة تغلب فى جميع أدوار تاريخها بالصرامة وقوة الشكيمة ، والبسالة والأنفة ، والتاريخ يحفظ من أيامها فى الجاهلية حرب البسوس التى شبت بينها وبين بكر ، ويذكر لها من حميتها فى الإسلام أنها قبل أن تدخل فيه لم ترض كلمة الجزية ، وقال بنوها لعمر بن الخطاب : « يا أمير المؤمنين ، لا تذلنا بين العرب باسم الجزية ، واجعلها صدقة مضاعفة » ففعل ، ثم كان منها فى الإسلام بعد أن دخلت فيه بيوتات ناهضة منها البيت الحمدانى المجيد .

وخرج من تغلب عدد من مشهورى الشعراء ، كان منهم فى الجاهلية مهلهل ابن ربيعة أخو كليب ، ويقول عنه الأصمعى : « إنه أول من نظم القصيدة فى ثلاثين بيتا » ، وفى الإسلام الأخطل والقطامى ، وغير هؤلاء ممن ذكرهم ابن قتيبة ، وابن دريد ، وابن خلدون ، وصاحب العقد .

وكانت قبيلة تغلب تنزل هضاب نجد والحجاز ، وتنتقل فى الجزيرة العربية ، شأن قبائل العرب ، وأخيراً استقر المقام بها فى المنازل التى عرفت بديار ربيعة فى الجزيرة ، شمالى بلاد العراق بين دجلة والفرات ، وعلى تخوم الشام ، وعاشت جماعة من تغلب فى مضارب على الضفة اليمنى ، لنهر الفرت عند منبج والرصافة وقنسرين ودمشق[2] .

إلى هذه القبيلة ينتسب حمدان مؤسس أسرة شاعرنا ، تلك الأسرة التى لم يغب عن ذهنها يوما فخرها بهذا النسب ، وما كان لآبائها فى الجاهلية والإسلام ،

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية ص ٣٢٤ .   (٢) المرجع السابق ص ٣٢٦ .

obeikandl.com

من كرامة ، وكثيراً ما كانت تسمى أبناءها باسم هؤلاء الآباء تخليداً لذكراهم ، فهذا نصر بن حمدان يسمى ابنه مهلهلا ، وداود أخو نصر يسمى ابنه تغلب أبا وائل ، وناصر الدولة يدعو ابنه أبا تغلب .

وكان حمدان ، رجلا له بين أبناء قبيلته شأن مرموق ، وزعامة تبعث فى نفسه الشعور بالقوة والتفوق ، فطمح إلى أن يستأثر بالحكم فى دياره ، وشجعه ما رآه من ضعف الدولة العباسية ، الذى وصفناه ، فأعلن استقلاله ، واعتصم بقلعة ماردين سنة إحدى وثمانين ومائتين من الهجرة ، وكان المعتضد هو الجالس على العرش فى ذلك الحين ، فاستطاع بعسر ومشقة أن يطفئ ثورة حمدان ، ولكنه رأى أن ينتفع بهذه القوة الجديدة يدعم بها ملكه ، فاختار الحسين بن حمدان ليحارب أحد الخارجين عليه من القرامطة ، واستطاع الحسين أن يتغلب على هذا الخارج ، ويظفر برضا الخليفة ، ولما تولى المكتفى بالله الحكم ظل على ثقته بآل حمدان ، فجعل الحسين على قيادة الجيش ، وولى أخاه أبا الهيجاء الموصل وأعمالها ، وندبه لإخماد ثورة كانت قائمة بالقرب من الموصل فنجح فى إخمادها .

لم تكن العلاقة بين الأخوين كما ينبغى أن تكون ، بل كان التنافس بينهما شديدا ، حادا ، فهذا العطف الذى ناله أبو الهيجاء قد أوغر صدر أخيه الحسين ، فأضمر الشر للخلافة ، وما إن تولى المقتدر الحكم حتى اشترك فى المؤامرة التى دبرت لخلعه ، ولما انكشف أمرها فر الحسين ، وأمر الخليفة أخاه أن يتعقبه ، ثم توسط وزير المقتدر وشفع له عند الخليفة ، فعفا عنه ، وعاد إلى بغداد .

ظلت علاقة الأخوين بالمقتدر مضطربة متغيرة ، فقد يرضى عن الحسين ، ويوليه ديار ربيعة فيعتصم هذا بولايته ، ولا يعطى الخليفة شيئاً من مال الضرائب ، فيغضب عليه الخليفة ، ويرسل إليه جيشاً يقوده أسيرا ، فتثور نفسه ويشترك فى مؤامرة ضد الخليفة تنتهى بقتله .

وكان حينا يسخط على أبى الهيجاء ، ويعزله عن ولاية الموصل ، فيأبى أن يخضع ، ويحارب ، وينتصر على الخليفة ، وحينا يرضى عنه ، ويوليه قيادة الجيوش

ضد الثائرين هنا وهناك ، وينتهى أمره بأن يقع صريعا فى معركة كان يدافع فيها عن المقتدر ، فحفظ له الخليفة هذا الجميل، وأقرّ ابنه ناصر الدولة على ولاية الموصل ؛ فاستقل بها ؛ ولم يعبأ بسلطان المقتدر ، ولا بسلطان الخلفاء الذين أتوا من بعده .

وقد غاظ هذا الاستقلال الخليفة الراضى ، ولكن لم تكن لديه القوة التى ترغم ناصر الدولة على الخضوع ؛ فلجأ إلى سياسة التفريق بين أبناء الأسرة ، يتخذ من بعضهم آلة يضرب بها البعض الآخر، فأغرى عم ناصر الدولة : سعيد بن حمدان ، وهو والد أبى فراس ، بإمارة الموصل ، فسار إليها ليأخذها من ابن أخيه . وكان ناصر الدولة رجلا صلب الفؤاد شجاعا ، لم يكد يلتقى بعمه حتى دبَّر له مكيدة أودت بحياته ، ولم يستطع الراضى أن يأخذ الموصل من ناصر الدولة ، برغم كل ما بذله من جهود . ثم عادت الصلة وثيقة بينه وبين الخلافة عندما توفى الراضى ، وارتقى المتقى إلى العرش ، فقد منحه لقب أمير الأمراء ، وأصهر إليه ، فتزوج ابنه بنت ناصر الدولة ، وبهذه المصاهرة صار الحمدانيون فى مأمن من الزعازع ، وأصبحوا أكبر عضد للخليفة ، يستعين بهم على الخارجين عليه ، ويجد فى إمارتهم الأمن والاطمئنان ، إذا عز عليه أن يجدهما فى عاصمة ملكه .

ولما مات المتقى ، ودخلت الخلافة العباسية تحت حكم آل بويه ، اصطدمت هذه السلطة الجديدة بناصر الدولة وأولاده ، وصارت الحرب سجالا ، حتى تنازع أولاد ناصر الدولة أمرهم بينهم ، وصاروا شيعا ، فاستطاع بذلك عضد الدولة البويهى أن يطرد أبا تغلب بن ناصر الدولة ، ويدخل الموصل وديار ربيعة تحت حكمه .

فى الوقت الذى كان ناصر الدولة يحكم فيه الموصل ، أسس أخوه سيف الدولة فى أرض حلب إمارة عربية مجيدة .

وكان سيف الدولة قد خاض غمار معارك كثيرة ، للدفاع عن أسرته ضد الخلافة حينا ، وحينا آخر للدفاع عن الخلافة ضد أعدائها ، ولكن نفسه العالية

لم تقنع بذلك . ورغبت فى أن تنال ولاية وتؤسس ملكا ؛ فتلفت يبحث عن بقعة صالحة لهذا الملك ، ولم يشأ أن ينازع أخاه ملك الوصل ، وأخوه ثابت القدم فيه ، فيمم نحو الغرب ، وكان قومه من تغلب منتشرين فى بقاعه ، ومضى إلى حلب ، وشجعه على أن ينالها اضطراب الأمر فيها ، وتنازع الولاة أمر حكمها ، فانتزعها من يد عامل الإخشيد سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة ، ثم مد سلطانه على شمال سورية ، وبعد حرب بينه وبين الإخشيد تصالحا ، على أن يحتفظ بسوريا الشمالية ، وأن يترك مدينة دمشق للمصريين .

هذا ، ويقول ابن خلكان فى ترجمة سيف الدولة : ورأيت فى تاريخ حلب أن أول من ولى حلب من بنى حمدان الحسين بن سعيد ، وهو أخو أبى فراس ، وأنه تسلمها فى رجب ، سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة ، وكان شجاعا موصوفا ، وفيه يقول أبو النجم :

وإذا رأوه مقبلا قالوا : ألا . . إن المنايا تحت راية ذاكا

وإذا صح ما رواه ابن خلكان فسيف الدولة لم ينتزع حلب من يد الإخشيد ، وإنما انتزعها من يد ابن عمه . وليس ذلك بمستبعد ؛ فان النزاع كثيرا ما كان يتقد بين أبناء هذه الأسرة . وسواء أكان هذا أم ذاك ، فقد أسس سيف الدولة فى شمال سورية دولة مستقلة ، حفظ لها التاريخ ماقامت به من جهود ، فى سبيل الدفاع عن حمى العرب ضد الروم ، الذين حاولوا مرارا أن يستولوا على ذلك الحمى ، فوقف لهم سيف الدولة وقفات مشرفة ، وأنشأ جيشا كبيرا حاربهم به ، فكان — كما قلنا — ينال من أعدائه ، وينالون منه . ويأسر منهم ، ويأسرون منه ، وفى كثير من الأحيان يحدث الفداء بين الأسرى . وقد قضى هذا الأمير معظم أيام ولايته فى هذه الحروب ، والاستعداد لها ، وكثيرا ما ألهمت وقائعه الشعر ، وأوحت بروائعه وخالده ، وسجلها وتغنى بها أعظم شعراء هذا العصر : المتنبي وأبو فراس .

آل ملك حلب من بعد سيف الدولة إلى ابنه : أبى المعالى شريف ، وقد حاول خاله أبو فراس أن يستبد بجزء من هذا الملك ، ولكنه غلب على أمره وقتل ، كما ستتحدث بعد ، ثم آل هذا الملك بعد أبى المعالى إلى أبى الفضائل سعد : حفيد سيف الدولة ، و بموته انتهى ملك آل حمدان ، بعد أن خلدوا لهم فى التاريخ ذكرا .

من هذا العرض الموجز لتاريخ الأسرة الحمدانية نلمس الصدق فى قول أبى فراس ، حين يصفها بقوله :

وللوراث إرث أبى وجدى : جياد الخيل ، والأسل الطوال
وما تجنى سراة بنى أبينا سوى ثمرات أطراف العوالى
ممالكنا مكاسبنا ، إذا ما توارثها رجال عن رجال

ففى الحق أنهم عاشوا حياتهم فى جهاد وجلاد ، وكونوا ممالكهم برماحهم وسيوفهم ، ولم يرثوها عن آبائهم وأجدادهم . ولقد ملكت هذه الفكرة نفس أبى فراس ، فآمن بأن الملك يستطاع أن يبنى بالسيوف ، و يؤخذ بأطراف الرماح ، وكان لهذه العقيدة أثرها فى أن أوردته موارد التلف كما سيأتى .

كان فى مستطاع هذه الأسرة أن تنشىء لنفسها ملكا ثابت الأساس ، مستقر الدعائم ، لا تزعزعه الأعاصير ، لو أنها كانت كتلة واحدة مجتمعة الأمر ، ولكن الذى أضعفها وذهب بريحها ، ولم يبقها على وجه التاريخ فتية قوية ، فلم يلمع اسمها سوى قرن واحد تقريبا — هو هذا التنافس الذى كان شديدا عنيفا بين أبناء هذه الأسرة ، وقد رأينا أثارة من هذا الخلاف فيما مضى بين الحسين وأخيه عبد الله ، و بين سعيد وابن أخيه ناصر الدولة ، و بين أبناء ناصر الدولة ، و بين أبى فراس وابن سيف الدولة : أبى المعالى ، فكل واحد من أبناء هذه الأسرة ، كان يحاول أن يكون لنفسه ملكا مستقلا عن صاحبه ، أو أن يأخذ الملك غصبا من يد أقاربه ، ولو أن سيف الدولة انضم إلى أخيه ناصر الدولة ، وكونا من

إمارتيهما إمارة واحدة ، وبذلا جهدهما فى تنظيمها وتقويتها ، ووضع قانون لحكمها ، ووجد كل فرد من أفراد هذه الأسرة مجده وعظمته فى أن يمد تلك الإمارة المتحدة بكل ما يملك من قوة — لكان من الممكن أن تعمر تلك المملكة ، وأن يكون لها دور آخر غير هذا الدور القصير الذى قامت به ، ولكن التنافس كان شديداً ، ولنصغ إلى هذه الأبيات التى كتبها سيف الدولة إلى أخيه :

رضيت لك العليا ، وإن كنت أهلها ... وقلت لهم : بينى وبين أخى فرق
ولم يك بى عنها نكول ، وإنما ... تجافيت عن حقى ، فتم لك الحق
ولا بد لى من أن أكون مصلياً ... إذا كنت أرضى أن يكون لك السبق

فبرغم ما يؤثر من أنه كان بين الأخوين محبة وود ، تحس بما كان بينهما كذلك من تنافس خفى .

أما والد أبى فراس فأحد أبطال هذه الأسرة ، اتصل بالخليفة المقتدر اتصالا وثيقاً ، حتى أصبح أثيراً لديه ، وكثيراً ما دافع عن الخليفة فى الثورات التى كانت تشب ضده ، وولاه الخليفة بعض الولايات ، وكان له وقائع فى القبائل العربية الثائرة ، وقد سجل بعض هذه الوقائع فى قوله ، وقد أثخن فى بنى عقيل بموضع يقال له « سرح » وراء نجد :

لبيتها ، تسأل عن موطنى ... بأرض سرح ، والقنا شرع
وعن عقيل إذ صبحناهم ... وقد تلاقى الحشد والدرع
وقد أتانا منهم فليق ... حماه حام ، ماله مدفع
حتى إذا ما كشرت نابها ... وعيف كأس الموت ، لا يكرع
وفلقت هام أسود الوغى ... وقطع الأسوق والأذرع
شددت فيهم شد ذى صولة ... قد جربته الحرب لا يخدع
لا تزجرنى عن طلاب العلا ... فما ينال العز من يضرع
أنا « سعيد » وأبى « أحمد » ... بالسيف ضرى ، وبه أنفع

وله كذلك غزو فى بلاد الروم ، أو غل فيها وسبى ، وقد سجل له هذه المعارك ولده أبو فراس ، فى قصيدته الرائية المطولة ، التى أنشأها مؤرخاً بها مفاخر أسرته ، وسوف نتحدث عن تلك القصيدة .

كما كان سعيد والد أبى فراس شاعراً مجيداً ، وقد ورث الابن عن أبيه حب الفروسية التى كان يراها وسيلته إلى نيل المجد ، وموهبة الشعر العاطفى الرقيق .

و يحفظ التاريخ للأسرة الحمدانية أنها ردت غارات الروم ، وأغارت على بلادهم ، وفتحت الكثير منها ، كما قهرت القرامطة ، وتسلطت على الأكراد وأخضعتهم ، وأخضعت قبائل العرب المنتشرة فى الجزيرة وبادية الشام ، وأدخلتها فى طاعتها ، وحاربت الإخشيديين فى الشام .

وتلقى كثير من أبناء هذه الأسرة مدح كثير من الشعراء ، فما قيل فى مدح جدهم : حمدان بن حمدون ، وكان يدعى « مكابد المحل » :

ما زلت (١) فى كيد المعيشة جاهداً حتى أتيت مكابد المحل
أعطى ، وقد بخل الزمان ، ولج فى إعطائه ، إذ لج فى البخل

ومما قاله فيهم هارون الكنانى من قصيدة يمدح بها سعيد بن حمدان :

يبرزون (٢) الوجوه ، تحت ظلال الموت ، والموت منهمُ يستظل
كرماء ، إذا الظبا غشيتهم منعتهم أحسابهم أن يولوا

وقال الشاعر يمدح ناصر الدولة :

من (٣) كان شرفه فيما مضى لقب فناصر الدين ممن شرف اللقبا
دعوك : « ناصرهم » لما نصرتهم فأعجز العجم ما حاولت والعربا

وفيهم يقول السرى الرفاء :

والحمد (٤) حلى بنى حمدان ، تعرفه والصبح أبلج ، لا يلقى بإنكار

---

(١) و (٢) و (٣) ديوان أبى فراس ص ١٢٥ و ١٣٥ و ١٣٧ على التوالى .
(٤) أبو فراس للعاملى ص ٧ .

obeikandl.com

قوم إذا نزل الزوار ساحتهم تفيئوا ظل جنات وأنهار

ومدح المتنبي أبا العشائر، وكان ثلث ديوانه تقريباً فى سيف الدولة ومعاركه، وفيهم يقول الشريف الرضى من قصيدة يرثى بها أبا الهيجاء: حرب بن سعيد: أخا أبى فراس:

فأين (١) كفاة القطر فى كل أزمة وأين الملاجى منهم والمغاوث

إذا مادعا الداعون للبأس والندى فلا الجود منزور، ولا الغوث رائث

إذا طرحوا عماتهم وضحت لهم مفارق، لم يعصب بها العار لائث

يرف على ناديهم الحلم والحجا إذا ما لغا لاغ من القوم رافث

مضوا لا الأيادى مخدجات نواقص ولا مهر العليـاء منهم رثائث

وما كنت أخشى الدهر إلا عليهم فهان الرزايا بعـدهم والحوادث

وكأن هذه القصيدة رثاء لبنى حمدان.

---

(١) أبو فراس للمؤلف ص ٥ ومختارات البارودي ج ٣ ص ٢٦٢.

يتيم

من هذه الأسرة التي بنت ملكها برماحها ، ينحدر الشاعر الفارس أبو فراس ، ففي يوم لا يعينه التاريخ ، من عام عشرين أو واحد وعشرين وثلاثمائة للهجرة ، ولد في الموصل — على ما أرجح — للأمير أبي العلاء سعيد بن حمدان طفل ، سماه : الحارث ، وكناه : أبا فراس ، وهي من كنى الأسد . ولم يكن هذا الطفل وحيد والده ؛ فقد أنجب أبناء غيره ، منهم : الحسين ، وأبو الهيجاء ، و بنتين صارت إحداهما زوجاً لأبي العشائر ، والأخرى زوجاً لسيف الدولة . أما الحارث فكان وحيد أمه ، كما يفهم ذلك من قول أبي فراس ، يعتب على سيف الدولة سوء رده لوالدته ، وهو في الأسر :

جاءتك تمتاح رد واحدها ينتظر الناس كيف تقفلها

ولعلها لم تأت بغيره .

ويبدو من قول أبي فراس :

وأعمامي ربيعة ، وهي صيد وأخوالي « بلصفر[1] » وهي غلب

وقوله :

إذا خفت من أخوالي الروم خطة تخوفت من أعمامي العرب أربعا

أن أمه كانت رومية ، كما يظهر أنها كانت عربية من قوله :

لم تتفرق بنا خئول في العز ، أخوالنا تميم

فلعل تميما كانوا أخوال أبيه ، أو أن إحدى جداته كانت رومية .

وبينما كان الطفل يناهز عامه الثالث ، أو كان قد جاوزه بقليل ، أودى الطمع بأبيه ، فقتله ناصر الدولة بالموصل — كما ذكرنا — فلم يبق للطفل الصغير

---

(١) يريد بني الأصفر وهم الروم .

سوى رعاية أمه وعطفها ، ولقد غمرته الأم بهما ، ووقفت حياتها كلها على خدمته وحبه ، برغم ما يبدو من أنها كانت لا تزال شابة فتية عندما أرملت ، وربط هذا النوع من الحياة بين الأم وولدها برباط متين من الحب العميق ، وقد أفرغت الوالدة كل ما لديها من عواطف على هذا الطفل ، والطفل يضمر لها مع الحب عظيم الإعجاب والتقدير ، وكان يثني على شدة تقواها وصلاحها ، حتى لقد قال فيها :

فيها التقى والدين مجـ ... ـموعان فى نفس زكية

وقد نشأته تنشئة صالحة ، وعنيت بثقافته عناية خاصة ، فأحضرت له مربين ، لقنوه علوم الدين واللغة العربية ، وتاريخ العرب وأيامهم ، ولا سيما تلك الأيام التى كانت لقبيلته : ربيعة ، ودرسوا له شيئا من الشعر ، ولا سيما شعر أهل الشام ، الذين كان البحترى نموذجهم ومثلهم ، كما تعلم الرماية والفروسية على يد مدربين مهرة ، وذلك هو منهج دراسة الأمراء فى ذلك الحين ، وقد أجاد أبو فراس ما درس ، حتى قال فيه أحد رجالات عصره :

من ذا يطاوله ، أم من يماجده ... أم من يساجله ، أم من يكاثره ؟!
أم من يفاقهه ، أم من يشاعره ... أم من يجادله ، أم من يناظره ؟!
أم من يبارزه ، أم من يواقفه ... فى كل معترك ، أم من يصابره ؟!

وقال فيه أبو أحمد الشيبانى :

أمدره تغلب ، لسنا وعــلما ... ومصقع نطقها عنـد التلاحى
لقد أوتيت علما واضــطلاعا ... بآداب وألفاظ فصـــــاح

أما نبوغه فى الفروسية — وقد كان مثله الأعلى أن يصبح فارسا ممتازا ، لامع الاسم ذائع الصيت — فقد بدا ، ولما يبلغ العشرين ، وها هو ذا ابن عمه أبو زهير (المتوفى سنة ٣٣٩) يرسل إليه مهنئا بانتصاره فى معركة دارت بينه وبين قوم من العرب ، فيقول له :

يا خير منتجب ، ينميه خير أب ... مخيلتى فيك لم تكذب ولم تخب

إن كان وجهك لم تخطط عوارضه   فأنت كهل الحجا والفضل والأدب
وقفت يابن سعيد وقفة شهرت   لا زلت أدعوك فيها فارس العرب

وسنرى مظاهر هذه الفروسية فى مستقبل حياته .

وأما معرفته بتاريخ العرب وأيامهم ، فنجد آثارها فى إشارته إلى ذلك التاريخ فى غضون قصائده ، كما قال فى قصيدة كتب بها إلى أمه وهو فى الأسر :

ويا أمتا ، صبرا ، فكل ملمة   تجلّى على علاتها وتزول
أمالك فى « ذات النطاقين » أسوة   بمكة ، والحرب العوان تجول
أراد ابنها أخذ الأمان ؛ فلم تجب   وتعلم علما أنه لقتيل
تأسى ، كفاك الله ما تحذرينه   فقد غال هذا الناس قبلك غول
وكونى ، كما كانت بأحد « صفية »   ولم يشف منها بالبكاء غليل

وكما أشار إلى حدث من أحداث حرب البسوس فى قوله :

وفى طلب الثناء مضى « بجير »   وجاد بنفسه « كعب بن مام »

إلى غير ذلك . ولقن فيما لقن تاريخ أسرته ، وما كان لآبائه وأجداده من مفاخر قديمه وحديثة ، وضمن ذلك قصيدة طويلة ، سوف نتحدث عنها .

ولقد نضج الفتى نضجاً مبكراً فى الشعر ، ويقال : إن أول بيت قاله هو :

بكيت ، فلما لم أر الدمع نافعى   رجعت إلى صبر أمر من الصبر

وهو بيت مملوء حياة وقوة ، لا يقلل منهما هذا الجناس المأخوذ من اللغة الدارجة . وسوف نتحدث عن شعره وتدرجه فى فصل قادم .

قضى الفتى طفولته وصدر شبابه فى منبج ، وهى على بعد ثلاثة فراسخ من غرب الفرات ، وعشرة فراسخ من الشمال الشرقى لمدينة حلب . ويقول عنها ياقوت : إنها مدينة كبيرة واسعة ذات خيرات كثيرة ، وأرزاق واسعة ، ويشرب أهلها من قنى تسيح على وجه الأرض ، وفى دورهم آبار أكثر شربهم منها ؛ لأنها عذبة صحيحة ، وهى ذات طبيعة جميلة ، وجو معتدل .

وقد أحب الشاعر مدينته ، وقضى فيها أياما سعيدة ، وكان فى رحلاته إلى الموصل حيناً ، و إلى الرقة أحياناً ، يحن إليها ، و يتذكر سعادته بها ، و يتمنى أن يعود إليها . قال فى إحدى قصائد رحلته :

فارقت حين شخصت عنها لذتى وتركت أحوال السرور ورائى
ونزلت من بلد الجزيرة منزلا خلوا من الخلطاء والـــندماء
الشام ، لا بلد الجزيرة لذتى و «بريد» لا ماء «الفرات» منائى
وأبيت مرتهن الفؤاد « بمنبج » السوداء ، لا « بالرقة » البيضاء

وصار حاكم منبج من قبل ابن عمه سيف الدولة ، وأسرته الروم وهو يدافع عنها . وكان يذهب إلى ابن عمه سيف الدولة بحلب ، و يطيل مقامه فيها ، وقد يستخلفه سيف الدولة على إمارته . أما أم شاعرنا فكان معظم إقامتها بمنبج ، على ما يظهر .

و بعد ، فماذا كان موقف أبى فراس من ذكرى أبيه ، وماصلته بناصر الدولة قاتله ؟

أما أبو فراس فكان قليل الحديث عن والده ، ولم يطل فى الحديث عنه إلا وهو يسجل مفاخره ، فى القصيدة الرائية الطويلة ، وفيما عداها لايكاد يذكر أباه ، إلا ليتحدث عن فضل سيف الدولة عليه ، وأنه رعاه بعد فقد أبيه ، فتسمعه يقول:

فكيف تنتصف الأعداء من رجل العـز أوله ، والمجـــد آخره
فمن سعيد بن حمدان ولادته ومن على بن عبـد الله سائره

ولا ريب أن لصغر سن الشاعر يوم مات أبوه دخلا فى ذلك ، فهذا الحادث لم تنطبع صورته فى نفسه انطباعا يثيره ، فلما شب كان قد اعتاد هذا اليتم ، فلم يشعر بأنه فقد شيئا ألفه من قبل .

على أن أبا فراس ما كان يعد الموت فى سبيل المجد شيئا يحزن له ، أو يأسف عليه :

ونحن أناس لا توسط بيننـا لنا الصدر دون العالمين ، أو القبر
تهون علينا فى المعالى نفوسنا ومن يخطب الحسناء لم يغلها المهر

أما صلته بناصر الدولة ، فيبدو أنه فى قرارة نفسه كان يحمل له الموجدة ، ويشعر نحوه بالمرارة ، وها هو ذا فى المواطن التى يستطيع أن يظهر فيهـا ألمه ، لا يخفى بغضه له وحقده عليه ، فعندما لجأ ناصر الدولة إلى أخيه سيف الدولة هاربا من معز الدولة سنة سبع وأربعين وثلاثمائة ، قال أبو فراس يعرض به ، ويذكر ثأره عنده ، ويرى أن شيخوخته لم تجلب له فضيلة ، ولم توجب له التقدم على أخيه الصغير : سيف الدولة ، فيقول :

شيخوخة سبقت لا فضل يتبعها وليس يفضل فينا الفاضل الهرم
ولم يفضل عقيـلا فى ولادته على علىّ أخيه السن والقدم
وكيف يفضل من أزرى به بخل وقعدة اليـد والرجلين والصمم
لا تنكروا يا بنيه ما أقول ، فلن تنسى الترات ، ولا إن حال شيخكم
كادت مخازيه ترديه ، فأنقذه منهـا ، بحسن دفاع عنه ، عمكم

وذكر مرة سيف الدولة سخاء أخيه ناصر الدولة ؛ فقال أبو فراس .

من كان أنفق فى نصر الهدى نشبا فأنت أنفقت فيه النفس والنشبا
يذكى أخوك شهاب الحرب معتمداً فيستضىء ، ويغشى جدك اللهبا

ويظهر أن ناصر الدولة كان يحس من أبى فراس ذلك ، فما كان يهش لرؤيته ، وما كان أبو فراس يسعى إلى لقائه . عتب عليه أخوه أبو الهيجاء فى تأخره عن لقاء الأمير ناصر الدولة ؛ فكتب إليه أبو فراس :

أبلغ أبا الهيجـاء مألكة امرىء فى سره الشكوى وفى إعـلانه
مالى أطاوع باختيـارك جاهدا ما النفس تحملنى على عصيـانه
من دون ذلك نفس حر مُرة أمسى مكان الذل غير مكانه
أباه ما ثلم العدا ، عيـابه دعاء ما حفظ النـدى ، صوانه

obeikandi.com

ما صاحبي إلا الذى فى وجهه عنوانه فى بشره ولسانه
كم صاحب لم أغن عن إنصافه فى عشرتى ، وغنيت عن إحسانه

وإذا كان أبو فراس قد تغنى فى قصيدته الرائية بمآثر ناصر الدولة ووقائعه ، مدافعا عن الخلافة حينا ومثخنا فى الثائرين حينا آخر ، فإن المقام كان يستدعى هذا التسجيل ، ليستكثر من مفاخر أسرته ، ومع ذلك فأين ما ذكره فى هذه القصيدة من مفاخر ناصر الدولة بالنسبة لأخيه سيف الدولة ، وإذا كان قد شاركه فى الحزن يوم توفى ابنه : أبو المرجى جابر ، فرثاه بقصيدة تنطق بالحزن والأسى ، فذلك لأن جابرا هذا كان يعطف على أبي فراس ، ويعامله معاملة فيها حب وعطف ، كما نشعر بذلك فى هذا الرثاء المؤثر :

أأبا المرجى ، غير حزنى دارس أبدا عليك ، وغير قلبى سال
ولئن هلكت فما الوفاء بهالك ولئن بليت فما الوفاء ببال
لا زلت مغدوّ الثرى ، مطروقه بسحابة ، مجرورة الأذيال
وحجبن عنك السيئات ، ولا يزل لك صاحب من صالح الأعمال

أما أبو فراس ، فيبدو لى ، أنه فى أعماق قلبه حاقد على ناصر الدولة ، ولعل ناصر الدولة وأخاه سيف الدولة ، رغبا أن ينهضا بعبء عمهما سعيد بعد قتله . ولما كان أبو فراس من نصيب سيف الدولة ، فإن ناصر الدولة لم يستطع أن يمحو ببره من قلب أبى فراس أثر ما قدمت يداه .

وعاش بعض إخوة أبى فراس بالموصل عند ناصر الدولة ، ولم يرهم منذ كان صغيرا ، فلما ذهب إليهم بعد أن كبر ، كانت صورتهم لم يبق لها فى ذهنه من أثر ؛ فعرفهم بالتخيل ، وبتلك الجاذبية التى تجذب الأخ إلى أخيه ، وفى ذلك يقول :

يلوح بسيماه الفتى من بنى أبى وتعرفه من غيره بالشمائل
مفدّى ، مردّى ، يكثر الناس حوله طويل نجاد السيف ، سبط الأنامل

والظاهر أنه دعا إخوته للإقامة معه فى منبج بعد أن صار حاكما لها ، وبعد أن

أقطعه سيف الدولة إقطاعات تدر عليه رزقا رغدا ، كما يمكن أن نفهم ذلك من قوله :

ألا يا زائر الموصل ، حى ذلك النادى
فبالموصل إخوانى وبالموصل أعضادى
وقل للقوم يأتونى من مثنى وأفراد
فعندى خصب زوّار وعندى رىّ ورّاد
كفانى سطوة الدهر ، جواد نسل أجواد

ويظهر أن الشاعر قد تزوج مبكرا ، وأنجب من بين ما أنجب فتاة ، أدركت دور الاحتجاب عندما داهم الموت والدها ، كما سنذكر ذلك فيما بعد . وإن كنا نلاحظ أنه كان قليل الحديث عن أولاده وهو فى الأسر ، فلم يذكرهم إلا فى قصيدة واحدة ، ولم يتحدث مطلقاً عن زوجه وهو أسير ، ولست أدرى عن زوجه شيئاً ، اللهم إلا أبياتاً قالها فى ديوانه ، هى :

وأديبة ، إخترتها ، عربيــة تعزى إلى المجد الكريم ، وتنتمى
محجوبة ، لم تبتذل ، أمّارة لم تأتمر ، مخدومة ، لم تخدم
لو لم يكن لى فيك إلا أننى بك قد غنيت عن ارتكاب المحرم
(ولقد نزلت فلا تظنى غيره منى ، بمنزلة المحب المكرم)

وقدم لها ناشر الديوان بأنه قالها فى ابنته : زوج أبي العشائر ، وواضح خطأ هذا التقديم؛ لأنها حديث عن أديبة اختارها ، وأغنته عن ارتكاب المحرم ، واقتبس بيت عنترة ، يبين به عن منزلتها فى قلبه ؛ فهى حديث عن زوج اختارها ، لا ابنة زوّجها . ويرجح هذا أن بعض الروايات تنص على أن ذلك آخر شعر قاله ، فإذا سلمنا أن ذلك من أواخر ما قاله من الشعر ، تحققنا أن ذلك لم يكن فى ابنة له تزوجها أبو العشائر ، لأن أبا العشائر توفى قبل أسر أبي فراس ، والأقرب إلى الصواب أن هذه الأبيات قالها فى ابنة أبي العشائر التى تزوجها أبو فراس ، وربما يكون قد تزوجها قبل موته بشهر ، كما يستفاد من موازنة الروايات . والواقع أن تلك مسألة غامضة فى حياة أبى فراس .

بيئة مثقفـــــة

كان من حسن حظ أبى فراس أنه عاش فى أرقى بيئة أدبية عرفها عصره ، فى جميع أنحاء العالم الإسلامى يومئذ ، فقد عاش فى بلاط ابن عمه سيف الدولة ، ذلك الأمير الحمدانى الذى عرف كيف يجمع حوله طائفة ممتازة من الشعراء ، واللغويين ، ورجال النحو ، والفلسفة ، وكان جوده وطمعه فى حسن الأحدوثة يجذبان إليه طوائف الشعراء والأدباء والعلماء ، واجتهد كل طامع فى كرمه أن يجيد ويتقن ، ليفوز بعطايا الأمير ، الذى كان يعطى عطاء من يلتذ بالإعطاء . يقول عنه الثعالبى فى يتيمته[1] : « ويقال : إنه لم يجتمع قط بباب أحد من الملوك بعد الخلفاء ما اجتمع ببابه من شيوخ الشعر ، ونجوم الدهر ، وإنما السلطان سوق يجلب إليها ما ينفق لديها ، وكان أديباً شاعراً محباً لجيد الشعر » .

ويحفظ التاريخ أسماء كثير من الشعراء اللامعة شخصياتهم فى تاريخ الأدب العربى ، ممن قصدوا سيف الدولة ، ونالوا حبه وتقديره ، ومنهم المتنبى ، والسرى الرفاء ، وأبو العباس النامى ، وأبو الفرج الببغاء ، والوأواء الدمشقى ، وغيرهم من الشعراء الذين خلدوا ذكره على وجه الزمان .

وكان فى بلاطه أشهر اللغويين والنحويين والفلاسفة فى عصره : أبو على الفارسىّ ، وتلميذه ابن جنى ، وابن خالويه ، والفارابى . وكثيراً ما كانت تدور المناقشات فى مجلس سيف الدولة ؛ فكان ابن جنى — مثلا — وهو صديق المتنبى يناقش الشاعر فيما يرد فى شعره مما يبدو خارجا على قواعد النحو وأصول اللغة ، وتوثقت الصلة بينهما (وقد شرح ديوان المتنبى شرحا استفاد منه كل من شرح الديوان بعده ؛ لاتصاله بالمتنبى ، ومعرفته بظروف شعره التى كثيراً ما تحدد المعنى ، وتمنع التأويلات)[2] .

---

(١) جـ ١ ص ١١ . (٢) ظهر الإسلام جـ ١ ص ١٨٦ .

أما ابن خالويه فلم تكن صلته بالمتنبي صلة حب ، بل صلة حسد وعداء ، فكان كثير الاعتراض على شعره ، والتفنيد لآرائه ، وكان ابن خالويه منحازاً إلى أبي فراس ، الناقم على المتنبي، كما سنبينه بعد . وهو الذى قام بجمع شعر الأمير الحمدانى الشاب .

كان بلاط سيف الدولة الذى عاش فيه أبو فراس يموج بالعلم والأدب ، وكثيراً ما كانت تدور فيه المناقشات والمناظرات اللغوية والأدبية والشعرية ، وكثيراً ما كان سيف الدولة ينشد القريض ، ويستنشده ، وينقده ، روى الثعالبى قال : « واستنشد سيف الدولة يوما أبا الطيب المتنبي قصيدته التى أولها :

على قدر أهل العزم تأتى العزائم ... وتأتى على قدر الكرام المكارم

وكان معجباً بها ، كثير الاستعادة لها ، فاندفع أبو الطيب المتنبي ينشدها فلما بلغ قوله فيها :

وقفت، وما فى الموت شك لواقف ... كأنك فى جفن الردى ، وهو نائم

تمر بك الأبطال كلمى هزيمة ... ووجهك وضاح ، وثغرك باسم

قال : قد انتقدنا عليك هذين البيتين ، كما انتقد على امرىء القيس بيتاه :

كأنى لم أركب جوادا للذة ... ولم أتبطن كاعبا ذات خلخال

ولم أسبأ [1] الزق الروى ولم أقل ... لخيلى : كرى كرة بعد إجفال

وبيتاك لا يلتئم شطراهما ، كما ليس يلتئم شطر هذين البيتين ، وكان ينبغى لامرىء القيس أن يقول :

كأنى لم أركب جواداً ، ولم أقل ... لخيلى : كرى كرة بعد إجفال

ولم أسبأ الزق الروى، للذة ... ولم أتبطن كاعباً ذات خلخال

ولك أن تقول :

وقفت وما فى الموت شك لواقف ... ووجهك وضاح وثغرك باسم

(١) سبأ الخمر شراها ليشربها .

obeikandl.com

تمر بك الأبطال كلمى هزيمة كأنك فى جفن الردى وهو نائم

فقال : أيد الله مولانا ، إن صح أن الذى استدرك على امرىء القيس هذا كان أعلم بالشعر منه ، فقد أخطأ امرؤ القيس ، وأخطأت أنا ، ومولانا يعرف أن الثوب لا يعرفه البزاز معرفة الحائك ، لأن البزاز يعرف جملته ، والحائك يعرف جملته وتفاريقه ، لأنه هو الذى أخرجه من الغزلية إلى الثوبية ، وإنما قرن امرؤ القيس لذة النساء ، بلذة الركوب للصيد ، وقرن السماحة فى شراء الخمر للأضياف ، بالشجاعة فى منازلة الأعداء ، وأنا لما ذكرت الموت فى أول البيت أتبعته بذكر الردى ، وهو الموت ليجانسه ، ولما كان وجه الجريح المنهزم لا يخلو من أن يكون عبوساً ، وعينه من أن تكون باكية ، قلت : ووجهك وضاح ، وثغرك باسم ، لأجمع بين الأضداد فى المعنى ، وإن لم يتسع اللفظ لجميعها ؛ فأعجب سيف الدولة بقوله ، ووصله » .

وأنشده أحد الشعراء مرة قصيدة شكر ، يقول فيها :

لم يغد شكرك فى الخلائق مطلقا إلا ومالك فى النوال حبيس

حتى إذا انتهى بقوله :

فغدا انا من جودك المأكول ، والمشروب ، والمنكوح ، والملبوس .

قال له سيف الدولة : « أحسنت ، إلا فى لفظة المنكوح ، فليست مما يخاطب بها الملوك . » . وفى ذلك ما يدل على رفاهة ذوقه .

وكان سيف الدولة يقول البيتين والأبيات ، فى الحين بعد الحين ، فمن ذلك قوله :

أقبلـــله على جزع كشرب الطائر الفزع

رأى ماء ، فأطمعــــه وخاف عواقب الطمع

وصادف فرصة ، فدنـا ولم يلتذ بالجـــرع

وقوله :

تجنى على الذنب ، والذنب ذنبه وعاتبنى ظلماً ، وفى شِـــقّه العتب

وأعرض لمـــا صار قلبي بكفه   فهلا جفاني ، حين كان لى القلب
إذا برم المولى بخـدمة عبده   تجنى له ذنباً ، وإن لم يكن ذنب

ولم يكن قول الشعر ، ولا تذوقه مقصورين على سيف الدولة وحده ، بل لقد امتازت الأسرة كلها بحب الشعر ، وحسن تذوقه ، وأجاد كثير من بنيها صناعة القريض ، وكان الأمير سعيد والد أبي فراس وأخوه نصر أبو السرايا شاعرين ، وأوردنا فيما مضى شيئاً من شعر الأمير سعيد ، وقد عقد الثعالبى فى كتابه : يتيمة الدهر ، فصولا ألم فيها ببعض ما كان لهذه الأسرة من صلة بالشعر ، وما كان لهم من غرام به ، ونقد له ، وروى بعض ما جرى على ألسنة أبنائها منه ، فأبو وائل يقول ، عندما أسر فى إحدى المواقع :

يا خليلى ، أسعدانى ، فقد عيل اصطبارى على احتمال البلية .

وأبو زهير مهلهل بن نصر يقول ، وهو مما كان يتغنى به :

وزعمت أنى ظالم ، فهجرتنى   ورميت فى قلبى بسهم نافذ
فنعم ظلمتك ، فاغتفر لى زلتى   هذا مقـام المستجير العائذ

وأنشد أبو بكر الخوارزمى لبعضهم :

أغمـام ما يدريك ما أفعالنا   والخيل تحت النقع كالأشباح
تطفو،وترسب فى الدماء ، كأنها   صور الفوارس فى كئوس الراح

ويقول الثعالبى : « أخبرنى جماعة من أهل الأدب ، أن المتنبى لما عوتب فى آخر أيامه ، على تراجع شعره ، قال : « قد تجوزت فى قولى ، وأعفيت طبعى ، واغتنمت الراحة ، منذ فارقت آل حمدان ، وفيهم من يقول « يعنى أبا زهير » :

وقد علمت بمـا لاقته منا   قبائل « يعرب » و « بنى نزار »
لقيناهم بأرماح طـوال   تبشرهم بأعمـار قصـار

ومنهم من يقول « يعنى أبا العشائر » :

أأخا الفوارس ، لورأيت مواقفى   والخيل من تحت الفوارس تنحط

obeikandi.com

لقرأت منهــا ما تخط يد الوغى   والبيض تشــكل ، والأسنة تنقط

وكان بين أبى فراس وكثير من أفراد أسرته ، وبخاصة أبو زهير ، تراسل بالقريض . غير أنه إذا كان كثير من أبناء هذه الأسرة يشرك أبا فراس فى صفات الشجاعة والـكرم والنبل ، فإن أبا فراس — ولا ريب — يبذهم جميعاً فى صناعة القريض ، فلم يكن بينهم من يساويه أو يدانيه .

obeikandl.com

نفســــيته

ورث أبو فراس فيما ورث عن آبائه الطموح إلى حياة سامية ممتازة ، فمنذ صغره كانت كبار الأمانى تجول فى فؤاده ، وكان المجد الرفيع هدفه الذى يرنو إليه ، فهذا العيش الخامل الذى يقنع به كثير من الناس لا يرضيه ، وهذا الرزق القريب المنال ليس مما يبتغيه .

وإن ذلك الطموح هو الذى دفعه إلى خوض غمار المعارك منذ الحداثة، حتى يلمع اسمه ، ويصبح أهلا لنيل ما يصبو إليه ، قال أبو فراس : « غزونا مع سيف الدولة ، وفتحنا حصن العيون فى سنة ٣٣٩ ، وسنى إذ ذاك تسع عشرة سنة [١] » .

وكانت هذه الأمانى تبعث فيه الثورة على نفسه ، كلما وجد منها تقاعسا أو بطءا فى العمل لنيل الأمل ، فيؤنبها بأن الهمة العالية لا تغنى ، ما دامت غير مصحوبة بعمل يحقق آمالها ، وحركة تدنى ما بعد من مثلها :

أرى نفسى تطالبنى بأمر قليل دون غايته اقتصارى
وما يغنيك من هم طوال إذا قرنت بأحوال قصار
وقيل لى: انتظر فرجا ، ومن لى بأن الموت ينتظر انتظارى

والبيت الأخير يدل على اللهفة الشديدة ، لسرعة تحقيق الهدف .

وأغلب الظن أنه كان يخفى عن الناس الغاية التى يرمى إليها ، ويدبر لها فى صمت . وفى البيئة السياسية التى يعيش فيها ، واتصاله الوثيق بسيف الدولة ، ما يحمله على هذا الإخفاء ، حتى لا تظن به الظنون :

يصان مهرى ، لأمر لا أبوح به والدرع ، والرمح ، والصمصامة الخذم [٢]

(١) شرح ابن خالوية للقصيدة الرائية بديوان أبى فراس جـ ٢ ص ١٤٢ .
(٢) القاطع من السيوف .

obeikandi.com

ولكن مطمحه يبدو واضحاً جلياً ؛ إذا نحن تتبعنا تاريخ حياته ، ودرسنا بيئته ، وفهمنا شعره ؛ فهو شاب قد تربى منذ طفولته فى بيئة محاربة ، وانحدر من أسرة بنت ملكها على أطراف رماحها ، فلا عجب أن كان المجد الحربى هو ما ينشده فى حياته ، وهو مثله الأعلى منذ الصغر . وكان يرمى من وراء هذا المجد الحربى أن يؤسس لنفسه ملكا ، فإن الوسائل التى يتغنى بأعدادها لهذا الأمل الذى يخفيه ويضمره — وسائل لنيل الملك فى ذلك العصر ، وإلا فما الذى يدخرله الدرع والرمح والسيف :

نفى الهم عنى همة علوية   وقلب على ما شئت منه مؤازر
وأسمر مما ينبت الخط ذابل   وأبيض مما يطبع الهند باتر

ودعا نفسه ملكا فى بعض شعره ، إذ قال :

لئن ألفيتنى ملكا مطاعاً   فإنك واجدى عبد الصديق

وقد كان يرى نفسه أهلا لبلوغ ما يصبو إليه ، ما دام مزوداً بأسلحة الكفاح الناجحة ، ولعله تلفت حواليه ، باحثاً أين يبنى ملكه ، فاقتنع بأنه لا يستطيع أن يؤسسه فى أرض يظلها سلطان ابنى عمه : ناصر الدولة وسيف الدولة ، فأخذ يلوم نفسه من ناحية على البقاء فى حلب ، التى لن يستطيع أن يحقق فيها أحلامه ، ويقنع نفسه من ناحية أخرى بأن وطنه إنما هو المكان الذى يحقق فيه آماله ، يتخذ منه داراً ، ومن سكانه أهلا ، وأن عليه أن يرحل ليحقق مطامعه .

والمرء ليس بغانم فى أرضه   كالصقر ، ليس بصائد فى وكره

ولعله أراد أن يقتطع لنفسه هو الآخر جزءاً من جسم الدولة العباسية ، فإنه ما كان يرى خلفاء العراق جديرين بالحكم ، كما نجده فى شعره .

غير أن أبا فراس لم يحقق أمله فى حياة سيف الدولة ، فرأيناه ينحى باللائمة على الدهر الذى يدفعه عن آماله ، ويبرىء نفسه من التقصير ، ويراها أهلا لكل فضل ، وسمو ، فيقول :

obeikandi.com

تطالبنى بيض الصوارم والقنا ... بما وعدت جدىَّ فىَّ المخايل
ولا ذنب لى ؛ إن الفؤاد لصارم ... وإن الحسام المشرفى لفاصل
وإن الحصان الوائق لضامر ... وإن الأصم السمهرى لعامل
ولكن دهراً دافعتنى صروفه ... كما دافع الدين الغريم المماطل
وأخلاف أيام إذا ما انتجعتها ... حلبت بكيات[1] ، وهن حوافل
ولو نيلت الدنيا بفضل منحتها ... فضائل تحويها ، وتبقى فضائل
ولكنها الأيام ، تجرى كما جرت ... فيسفل أعلاها ، ويعلو الأسافل

ولقد غذى فيه صفة الطموح اعتداده بنفسه ، وإيمانه بمواهبه ، هذا الإيمان الذى جعله يشعر بجدارته بأعلى المناصب وأسماها ، فهو يرى أنه قد ورث عن آبائه البسالة فى الحروب والإقدام :

أنا ابن الضارب بين الهام قدماً ... إذا كره المحامون الضرابا

ويرى أن حداثة سنه لم تحل بينه وبين أن يكون له رأى سديد ونظر ثاقب ، وهو لذلك يجمع بين حماسة الشباب ، ونضج الكهول :

إن لم تكن طالت سنى فإن لى ... رأى الكهول ، وغيرة الشبان

ويرى نفسه كفء الكفاية العظائم ، وتحمل الأثقال ، بل إن الممنع إذا طلبه كان يسير المنال ، يقول لابن عمه أبى العشائر ، وقد وقع فى الأسر :

ألاَّ دعوت أخاك ، وهو مصاقب ... يكفى العظيم ، ويحمل الأثقالا
ألاَّ دعوت أبا فراس إنه ... ممن إذا طلب الممنع نالا

ومن اعتداده بنفسه أنه كان يجاهر عدوه ، وينذره بالحرب ، ولا يأخذه غيلة ، ولا يدبر له مكيدة :

---

(١) أخلاف جمع خلف وهو الضرع ، وانتجعها طلب ما فيها من اللبن ، وبكأت الناقة أو الشاة قل لبنها .

إذا شئت جاهرت العدو، ولم أبت أقلب فكرى فى وجوه المكايد

وكان يعلن عن نفسه فى المعركة، ولا يرى الحذر والتستر. وفى معركة دارت بينه و بين الروم سمى نفسه، فلما أسر بعض صحبه، طلب منه قائد الروم أن يكتب إلى أبى فراس، ويقول: مثلك لا يتسمى فى مثل ذلك اليوم، و يعرف الناس نفسه؛ فقال أبو فراس فى ذلك هذين البيتين:

يعيب علىّ إذ سميت نفسى وقد أخذ القنا منهم ومنا
فقل للعلج: لو لم أسم نفسى لسمانى السنان لهم، وكنى

و يبدو لى أن أبا فراس قد غالى فى اعتداده بنفسه، وشعوره بها، حتى ليخيل إليه أن الدنيا كلها تحسده، وكأن الأيام لم تر من قبل فاضلا مثله:

ولم أر مثلى أكثر الناس حاسدا كأن قلوب الناس لى قلب واجد
ألم ير هذا الدهر قبلى فاضلا ولم يظفر الحساد قبلى بماجد

والمواطن التى كان يعتد فيها بنفسه هى مواطن الحرب، ومواطن الرأى، ومواطن القول، وهى مجملة كلها فى هذا البيت:

منعت حمى قومى، وسدت عشيرتى وقلدت أهلى غرهذى القلائد

إلى جانب الطموح والاعتداد بالنفس، نرى فى أبى فراس عزة و إباء، يدفعانه إلى أن يمارس أسباب المجد التى تعزه بين بنى قومه، و يأبى أن ينزل عن كرامته فى سبيل عرض فان من أعراض هذه الحياة، فهو لا يعد السيد جديرا بشرف السيادة إن استذلته مطامعه، قال:

ولا أنا من كل المطاعم طاعم ولا أنا من كل المشارب شارب
ولا أنا راض إن كثرن مكاسبى إذا لم تكن بالعز تلك المكاسب
ولا السيد القمقام عندى بسيد إذا استنزلته عن علاه الرّغائب

وقد عرضت على سيف الدولة خيوله، وبنو أخيه حضور، فكل اختار منها، وطلب حاجته، وأمسك أبو فراس؛ فعتب عليه سيف الدولة، ووجد فى نفسه

لهذا التصرف ، فأرسل إليه أبو فراس قصيدة منها :

إنّ الغنى هو الغنىّ بنفسه ولو أنه عارى المناكب ، حاف
ما كل ما فوق البسيطة كافيا فإذا قنعت فكل شىء كاف
و يعاف لى طبع الحريص أبوّتى ومروءتى ، وقناعتى ، وعفافى
ما كثرة الخيل الجياد بزائدى شرفا ، ولا عدد السوام الضافى

وقد يقال إنّ تواضعه لسيف الدولة ، حتى ليسمّى نفسه غلاما له ، و يقول :

فلا تعدلنّ ، فداك ابن عمك لا بل غلامك ، عما يحب

يقلل من هذا الإباء ، أو يدفعه ، ولكننا سنبين فى فصل تال ما الذى دفع أبا فراس إلى هذا التصرف .

وكان من أهم عوامل اعتداده بنفسه ، ما اتصف به من الشجاعة والإقدام . و إن مؤرخيه ليشهدون له بهما ، و يجعلونهما فى رأس ما اتصف به من مزايا . وحوادث حياته تدل على أن معاصريه كانوا يقدرون تلك الشجاعة عظيم التقدير ، وسيف الدولة الخبير فى معرفة قيم الرجال وغنائهم فى الحروب ، ولاّه فى كثير من الوقائع قيادة جيوشه ، وصحبه معه فى كثير من غزواته وكانت تلك الصفة — شأنه فى ذلك شأن العرب — ينبوع فخار دائم له ، فلا تكاد تقرأ قصيدة يفتخر فيها ، إلا رأيت صفة الشجاعة بارزة فى هذا الفخار ، يعدها عنصراً أساسيا من فضائله ، فتسمعه يقول :

و إنى لنزّال بكل مخوفة كثير إلى نزالها النظر الشزر
و إنى لجرّار لكل كتيبة معودة ألا يخل بها النصر
فأصدى، إلى أن ترتوى البيض، والقنا وأسغب، حتى يشبع الذئب، والنسر
ويا ربّ دار ، لم تخفنى ، منيعة طلعت عليها بالرّدى أنا ، والفجر

فهو فارس مقدام ، ولا يقلل من أمر فروسيته أنه وقع أسيراً فى يد عدوه ،

بل إن رضاه بالأسر يدل على تلك الصفة ويؤكدها ، فقد فضل الأسر على أن يلوذ بأذيال الفرار .

وقال أصيحابى : الفرار أو الردى فقلت : هما أمران ، أحلاهما مر
ولكننى أمضى لما لا يعيبنى وحسبك من أمرين خيرهما الأسر
ولا خير فى دفع الرّدى بمذلة كما ردها يوما بسوأته عمرو

ومما نمى صفة الإقدام فيه ، إيمانه بالقضاء والقدر ، فهو يضع الخطة الحربية ، ويؤمن بأن فى يد الله نجاحها أو إخفاقها ، وذلك هو الاستسلام الذى يملأ قلب الجندى فى ميدان المعركة ، وما دام هذا الإيمان يملأ قلبه ، لا خير فى التراجع ، ولا فائدة فيه .

شاعرنا يؤمن بالقضاء والقدر ، فإذا اتخذ الله حافظا ستره وجنبه الزلل .

وكنت إذا جعلت الإله لى ستراً من النوب
رمتنى كل حادثة وطارقة فلم تصب

يؤمن بأن الله هو مؤتى النصر ، فإذا اعتددت بغيره أتتك الهزيمة ، من حيث ترجو الظفر :

إذا كان غير الله للمرء عدة أتته الرّزايا من وجوه الفوائد

وليست آلات القتال ، وإن أحسنت عدتها ، ودققت فى اختيارها ، مما يحفظك إذا الله لم يرد :

إذا الله لم يحرزك مما تخافه فلا الدّرع مناع ، ولا السيف قاضب
ولا سابق مما تجنبت سابق ولا صاحب مما تخيرت صاحب

فالمرء — عنده — مسير بالقضاء والقدر ، وإرادته ليست شيئا أمام إرادة الله :

وما لم يرده الله فى الأمر كله فليس لمخلوق إليه سبيل

فلا غالب لقضاء الله ، ولا هارب مما قدره . ولقد تعد للأمر عدته ، وتتحصن ما شئت أن تتحصن :

ولكن إذا حم القضاء على امرئ فليس له بر يقيه ولا بحر

ولقد كان إيمانه بالقضاء والقدر من بين الأسباب التي كانت تجلب إلى نفسه — في بعض الأحيان — الراحة وهو أسير في أيدي الروم .

أبو فراس فارس شاعر ، فيه ما في الفارس من شدة وقسوة ، وما في الشاعر من لين ورحمة ، فهو في الموقعة محارب ، يكرس كل جهده ؛ لإنزال الهزيمة بالعدو ، لا يقصر في الضرب والطعان ، ويروى بالدماء السيف والقناة ، ويشبع بأجسام العدو الذئاب والنسور ، ولا يرضيه إلا أن يلقى العدو أمامه سلاحه ، أو أن يولى مدبراً هزيما :

فولوا ، للقنا والبيض فيهم وفي جيرانهم نهل وعل

محارب ، يرى مقابلة الشر بالشر ، ودرء الفساد بالفساد ، وهو في ذلك غير آثم ولا متجنّ ، ما دام عقبى القسوة رشدا وصلاحا ، وكأنه بذلك يؤمن بأن الحرب شر لا بد منه ؛ لانتظام أمور المجتمع :

ألا أبلغ سراة بنى كلاب إذا نديت نواديهم صباحا

جزيت سفيهم سوءاً بسوء فلا حرجا أتيت ولا جناحا

ولست أرى فسادا في فساد يجر على فريقيه صلاحا

وهو شاعر ، يحمل قلبا رحيما عطوفا ، حتى على من يحارب به ، فلا يلبث بعد انتصاره عليه أن تتحرك فيه عوامل الشفقة ، فيثوب إلى حلمه ، و يغلب عليه العفو :

له بطش قاس ، تحته قلب راحم ومنع بخيل ، تحته ذيل مفضل

* * *

فلما أطمت الجهل والغيظ ساعة دعوت بحلمى : أيها الحلم أقبل

فهو :

يستعمل الشدّة في أوانها ويغفر الزلة في إبانها

بل إنه ليتعدّى العفو إلى البذل والعطاء . ووقائعه مع ثوار العرب الذين

عادوا فأنابوا ، دليل صدق على تأصل تلك الطبيعة فيه ، وها هو ذا يحدثنا عن بنى كلاب ، وقد عادوا إلى الطاعة ، وتركوا العصيان :

وعادوا سامعين لنـــا ، فعدنا إلى المعهود : من شرف الفعال
ونحن متى رضينا بعد سخط أسونا ما جرحنـــا بالنوال

وفيه من صفات الفارس الشاعر أنه لا يقبل الضيم ، ولا يرضى أن يضيم من هو دونه ، يجد الضعيف فى عدله المأوى والحمى ، أما الطاغية المتجبر فلا يجد لديه العطف واللين :

وأبذل عدلى للأضعفين وللشامخ الأنف لا أبذله

ومن هؤلاء الضعاف المرأة ، فقد كان يصغى إلى استغاثتها ، ويسمع نداءها ، ويلبى طلبها ، إذا حارب قبيلها ، فما هو إلا أن يسمع صراخ المرأة فى المعركة ، حتى يغفر لقومها ، ويعيد إليهم ما أخذه منهم ، وإن لامه فى ذلك جنده وعتبوا عليه

يتيمات نحميهن ، ليس يريننى بعيد التجافى ، أو قليل التفضل
شفيع النزاريات غير مخيَّب وداعى النزاريات غير مخذَّل
رددت برغم الجيش ما حاز كله وكلفت مالى غرم كل مضلل
فأصبحت فى الأعداء أىّ ممدح وإن كنت فى الأصحاب أى معذّل
وعدت كريم البطش والعفو فيهما أحدّث عن يوم أغرّ محجّل

ولا تقف صلته بالمرأة ، عند حد النزول على طلبها فى الحروب ، بل هو يقدّرها ويجلّ أمرها ، ويعتد بمدحها ، ويسعى جاهداً لنيل هذا المدح ؛ فها هو ذا يجدّ فى طلب المجد ، حتى تستطيع بنات عمه أن يفتخرن به ، ويتحدثن عنه ، وحتى لا يتركهن خجلات ، يبحثن له عن مكرمة فلا يجدن ، فيلفقن له المزايا ، تسمع ذلك حين يقول :

أريتك ما تقول بنات عمى إذا وصف النساء رجالهنه
أما والله لا يمسين حسرى يلفقن الكلام ، ويعتذرنه

ولكن سوف أوجدهن وصفاً   وأبسط فى الندى بكلا مهنّة
متى ما يدن من أجل كتابى   يكن بين الأعنة والأسنة

وهو يستشهد بهن ، ويحيلك أن تسألهنّ عن كرمه ونبله ، ليخبرنك بما رأين وبما سمعن ، ونراه يعتز باعجابهنّ ، ويفتخر به ، قائلا :

ورحت أجرّ رمحى عن مقام   تحدّث عنه ربات الحجال
فقائلة تقول : أبا فراس   لقد حاميت عن حرم المعالى
وقائلة تقول : جزيت خيرا   أعيذ علاك من عين الكمال

وسوف ندرس فى فصل قادم إلى أى مدى عرف قلبه الحب ؟

هذا ، وإذا كان أبو فراس تغلب عليه الرقة فى معاملة عدوه ، حين ينهزم ، فإنه كان رقيقاً فى معاملته لصحبه ، يرفق بهم إذا ساروا معه للغزو ، أو صحبوه فى سفر ، ويبذل إخلاصه قوياً عميقاً ، لمن يبذل له الإخلاص القوى العميق ، وسوف نتحدث عن ذلك فى إخوانياته

ومن الصفات التى ذكرها مؤرخوه بين سماته البارزة — كرمه ، ويقول عنه الثعالبى فى ذلك : « كان فرد دهره ، وشمس عصره ، أدباً وفضلا ، وكرماً ونبلا » (ص ٢٧ ج ١) ، والكرم من صفات العرب المتوارثة بينهم ، وهو صفة من صفات هذه الأسرة ، التى لا تستطيع أن تبنى مجدها بدونها ، ولا أن تؤسس زعامتها من غيرها . وله فى التمدح بالكرم شعر كثير منه تلك المقطوعة التى أرسلها إلى أبى محمد جعفر بن ورقاء ، وهى مشهورة ، ومنها :

إنا إذا اشتد الزمان ، وناب خطب ، وادلهم
ألفيت حول بيوتنا   عدد الشجاعة والكرم
للقا العدا بيض السيوف ، وللندى حمر النعم
هذا وهذا دأبنا   يودى دم ، ويراق دم

فأجابه أبو محمد بقصيدة ، منها :

أنتم كما قد قلت ، بل أعلى وأشرف يا بن عم

وهو يتمدح على طريقة العرب البادين ، بسعة الجفان ، وحسن لقاء الأضياف ، وإيقاد النار للسارين، يهتدون بها إلى بيته . ولكننا نرى أنه قد مرت به أوقات فقر ، اشتهى فيها الغنى ، وصح له أن يقول مخاطباً من يحب :

وإنك فى عينى لأبهى من الغنى

وأن يقول :

ولا راح يطغينى بأثوابه الغنى   ولا بات يثنينى عن الكرم الفقر

وأغلب الظن أن هذه فترات ، كانت تمر به . أما حياته فى مجملها فكانت حياة شاب ثرى ، فقد كان حاكما لمنبج ، من قبل ابن عمه سيف الدولة ، وكثيراً ما غمره هذا بعطاياه وإقطاعاته .

ولقد كان عند أبى فراس ميل إلى أن يستمتع بما فى الطبيعة من جمال ، وأن يعطى نفسه حظاً من اللهو ، كلما فرغ من الحرب والغزوات ، وهو لا يجد عاراً على الفتيان أن يطلبوا اللهو ، وأن يسعوا إليه :

وما فى طلب اللهو على الفتيان من عار

فليست الآمال الكبار التى تجول فى فؤاده ، ولا الحرب التى استغرقت واستغرق الإعداد لها كثيراً من وقته ، مما يثنيه عن هذا النصيب من اللهو . بل إن الحرب بطبيعتها تبعث فى نفس الجند رغبة المتعة بالحياة ، كلما فرغوا منها ، فإن حياتهم دائماً فى خطر ، فهم ينتهزون الفرصة للاستمتاع كلما عنت لهم ؛ فسماع الغناء مما يطرب له ، وشرب الخمر من ساقية جميلة تديرها ، فى روضة تفتحت أزهارها، وتغنت أطيارها ، أو فى مجلس رق هواؤه ، وصفا ماؤه ، ونسقت أزهاره، يصبيه ويحن إليه .

وردت إحدى محسنات القيان إلى حلب ، فاشتاق أبو فراس إلى سماعها ،

وكتب إلى سيف الدولة يرجوه أن يأذن فى حضورها مجلسه ، ليستمع إلى غنائها ، وقال له :

محلك الجوزاء ، بل أرفع وصدرك الدهناء ، بل أوسع
وقلبك الرحب الذى لم يزل للمجد والهزل به موضع
رفه بنقر العود سمعا غدا قرع العوالى جل ما يسمع

فأنظره سيف الدولة .

وربما قضى بعض الليالى منغمساً فى اللهو ، كأشد ما يكون الانغماس ، ولعلك تشم ريح أبى نواس فى قول شاعرنا :

تواعدنا لأذار بمسعى غير مختار
وقمنا نسحب الريط ، إلى حانة خمار
فلم ندر ، وقد فاحت لنا من جانب الدار
بخمّار من القوم نزلنا أم بعطار
وقلنا : أوقد النار ، لطرّاق وزوّار
وما فى طلب اللهو على الفتيان من عار

ولكننى ألمح أن مثل تلك الليالى قليل فى حياة أبى فراس ، ولم تكن غرضه الأسمى فى الحياة ، بل هو يرى أنه هو وأسرته ما خلقوا للهو ، بل للمجد والحرب :

لئن خلق الأنام لحسو كأس ومزمار ، وطنبور ، وعود
فلم يخلق بنو حمدان إلا لمجد ، أو لبأس ، أو لجود

وكان من أكبر لذائذ أبى فراس خروجه مع صحبه إلى الصيد ، يعدون له عدته ، ويأخذون له أهبته ، وله فى ذلك أرجوزة طويلة ، سوف أعرض لها فى فصل آت ، وقد تحدث فى مطلعها عن قلة ما ظفر به من أيام السرور ، إذ قال :

ما أجور الدهر على بنيه! وأغدر الدهر بمن يصفيه!

لو شئت مما قد قللن جداً   عددت أيام السرور عداً

ولقد نقص على أبى فراس حظه من اللهو نزول الشيب مبكراً فى رأسه ، فقد ألم به ولما يبلغ العشرين ، فلم يكن قد استمتع من الصبا ، حتى جاءه داعى الوقار ، وما أقبح الشيب ينزل فى إبان الشباب . وهاهو ذا شاعرنا يستقبله شر استقبال ، ويحتمله صابراً ، كما يحتمل شديد الأرزاء ، وقد احتار فى أمر هذا الجار الجديد ، أيقصه ويعفى آثاره ، أم يبقيه على كره ومضض ، فقر رأيه على احتماله . ونحن نرى الألم يفيض على لسان أبى فراس بالشكوى من الشيب ، فنسمعه يقول :

عذيرى من طوالع فى عذارى   ومن رد الشباب المستعار
وثوب كنت ألبسه أنيق   أجرر ذيله بين الجوارى
وما زادت على العشرين سنى   فما عذر المشيب إلى عذارى
وما استمتعت من داعى التصابى   إلى أن جاءنى داعى الوقار
أيا شيبى ظلمت ، ويا شبابى   لقد جاورت منك بشر جار

هذا ، ولكى نكمل سماته النفسية ، نرى أن نبين ما لحقه من الجزع ، والنظرة السوداء إلى الحياة ، عندما وقع فى أيدى الروم أسيراً ، وسوف نتحدث عن شاعرنا فى الأسر.

ومن سمات أبى فراس إسرافه فى إظهار عواطفه ، فرحاً أو حزناً ، فهو إذا سمع عن صديق له مرض ، لا يكتفى إلا بأن تبلى العبرات خديه :

قيل لى : إنك اعتللت ، فأبلـ   ـيت جديد الخدين بالعبرات

وإذا مضى سيف الدولة إلى الغزو ، ودّع الهدوء نفسه ، والاستقرار قلبه ، وترك دموعه تنهمر ، لأنه لم يصحبه ، فيقول :

دع العبرات تنهمر انهمارا   ونار الوجد تستعر استعارا
أتطفأ حسرتى ، وتقر عينى   ولم أوقد مع الغازين نارا ؟!

obeikandi.com

إذا سار الأمير فـــلا هدوًا لنفسي ، أو يثوب ، ولا قرارا
أكابد بعده همًا وغمـــا ونوما لا ألذّ به غــرارا

ولا يكتفي فى الحديث عن شوقه إلا بتصويره نيرانا بين ضلوعه . أما نظرته إلى الحياة ، وهو حر طليق ، فنظرة من يراها خليطا من الخير والشر ، والنعيم والبؤس ، والحكمة عنده أن يستقبل المرء الحياة برزانة من لا يرى ثباتاً لسرور ولا حزن ، ولا لنعيم ولا شقاء ، وخير معبر عن هذه النظرة قوله :

الدهر يومان : ذا ثبت ، وذا زلل والعيش طعمان : ذا صاب ، وذا عسل
كذا الزمان ، فما فى نعمة بطر للعــارفين ، ولا فى نقمة فشل
سعادة المرء فى السراء إن رجحت والعدل أن يتساوى الهم والجـذل
وما الهموم ، وإن حاذرت ثابتة ولا السرور ، وإن أملت ، يتصل
فما الأسى لهموم ، لابقاء لهـــا وما السرور بنعمى ، سوف تنتقل ؟!

obeikandi.com

صلته بأسرته

كان أبو فراس شديد الزهو بأسرته . وما بنته من مجد فى الجاهلية والإسلام ، وقد أنشأ قصيدة طويلة تبلغ مائتين وخمسة وعشرين بيتا ، كلها تسجيل لمآثر آبائه وأجداده ، وفيها يعلن أن لأسرته فى حاضرها ما يضارع مجدها القديم إن لم يزد عليه ، ولولا هذا ، كان الفخر بالماضى تعلة لا قيمة لها :

أيشغلكم وصف القديم ، ودونه مفاخر ، فيهـــا شاغل ومآثر
لنا أول فى المكرمات ، وآخر وباطن مجد تغلبي ، وظـــاهر
أبا أحمد ، مهلا ، إذا الفرع لم يطب فلا طبن يوم الإفتخار العناصر

وعلى ذلك مضى الشاعر يفخر بأجداده السابقين ، وأبناء أسرته المعاصرين . وسوف ندرس هذه القصيدة عند الحديث عن فخره .

واتصل أبو فراس بعظماء أسرته ، وقد رأينا فيما مضى لون صلته بناصر الدولة أمير الموصل ، وسندرس فيما يلى صلته بسيف الدولة أمير حلب .

ومن بين أبناء أسرته كانت صلته وثيقة بأبى العشائر أمير أنطاكية ، ويظهر أن المودة كانت بينهما قوية الرباط ؛ فهذا الشعر الذى أنشأه أبو فراس ، حين أسر الروم ابن عمه أبا العشائر ، ينطق بهذا الود المتين ، فقد عبر عن حزنه بقصائد ، تفيض حبا وحنانا ، يقول فى إحداها مخاطبا ابن عمه :

لذيذ الكرى حتى أراك محرم ونار الأسى بين الحشا تتضرم
وأترك أن أبكى عليك ؛ تطيرا وقلبى يبـــكى ، والجوانح تلطم
وأظهر للأعداء فيك جلادة وأكتم ما ألقاه ، والله يعـــلم

وكذلك كانت صلته قوية بابن عمه أبى زهير المهلهل ، وكان كل منهما يضمر لصاحبه الحب والإعجاب ، وفى تلك القصيدة الطويلة ، التى أنشأها لتسجيل مفاخر

قومه ، يتحدث عن المهلهل حديث المحب المعجب ، فيقول :

ومنا الأغر ابن الأغر « مهلهل » خليلي ، إن ذم الخليل المعاشر

فإن أدع فى اللأواء ، فهو محارب وإن أسم للعلياء ، فهو مظاهر

وديوان أبى فراس يضم عدداً من القصائد التى تبودلت بين ابنى العم ، وكلها تفيض بالحب والوفاء .

وكان بين أبى فراس وأخيه أبى الهيجاء من بين إخوته حب عميق وود ، وقد ألم الجزع بنفس أبى الهيجاء حين علم نبأ أسر أخيه ، فكتب إليه الأسير يشجعه ، ويقول :

بنفسى ، وإن لم أرض نفسى ، لراكب يسائل عنى ، كلما لاح راكب

قريح مجارى الدمع ، مستلب الكرى يقلقله هم من الشوق ناصب

أخى ، لا يذقنى الله فقدان مثله وأين له مثل ؟ وأين المقارب ؟

تجاوزت القربى المودة بيننا فأصبح أدنى ما يعد المناسب

ألا ليتنى حملت همى وهمه وأن أخى ناء عن الهم عازب

ولم يكن هذا الأخ شقيقاً له ، كما رجحنا ، ولا كان يعيش معه فى بلدة واحدة ، بل كان يعيش فى الموصل ، كما نفهم ذلك من قوله فى القصيدة السالفة :

سقى الله أرض الموصل المزن ؛ إنها لمن حلها فرض له الحب واجب

وكما نفهم ذلك من رسالة كتبها إليه ، وهو أسير بالقسطنطينية :

وقد كنت أشكو البعد منك ، وبيننا بلاد ، إذا ما شئت قربها الوخد

فكيف ، وفيما بيننا ملك قيصر ولا أمل يحيي النفوس ، ولا وعد

وإذا كانت صلة أبى فراس قوية بالكثير من أفراد أسرته ، وكانت صلته بهم يظللها الحب والمودة ، فقد رأيناه يشكو فى بعض شعره ، ما يقاسيه من بعض أقاربه ، وما ينالونه به : من الإساءة والمكروه :

أرانى وقومى فرقتنا مذاهب وإن جمعتنا فى الأصول المناسب

obeikandl.com

فأقصاهم أقصاهم عن مساءتى ... وأقربهم مما كرهت الأقارب

حتى لقد بلغ الأمر ببعض أهله أنه كان يكره خلاصه من الأسر الذى وقع فيه ، كما سنرى ، وربما كان لهذا البعض أثره فى تأخير فدائه ، وإرجاء سيف الدولة أمر خلاصه .

ولقد ذكرنا فيما أسلفنا أن خلق الطموح فى هذه الأسرة ، كان من نتائجه السيئة حدوث الفرقة ، بين بعض أبناء الأسرة وبعض ، وقلنا إن ذلك كان من الأسباب التى حطمت قوامهم ، وضعضعت ملكهم . وكان موقف أبى فراس من هذه الفرقة موقف المتألم الحزين ، وها هو ذا — وقد رأى بادرة تبشر باجتماع شملهم ، يعلن غبطته وسروره ، ويدعو عشيرته إلى الوحدة واجتماع الكلمة ، فقد حدث أن أبا تغلب بن ناصر الدولة حاصر أخاه حمدان بالرقة ، فنهض أمراء الأسرة إليها ، يحولون بين حرب الأخ لأخيه ، ففرح أبو فراس بذلك ، وقال :

المجد بالرقة مجموع ... والفضل مرئى ومسموع
إن بها كل عميم الندى ... يداه للجود ينابيع
لكن أتانى خبر رائع ... يضيق عنه السمع والروع
أن بنى عمى — وحاشاهم ... شعبهم بالخلف مصدوع
ما لعصا قومى قد شقها ... تفارط منهم وتضييع
بنى أبى ، فرق ما بينكم ... واش ، على الشحناء مطبوع
عودوا إلى أحسن ما كنتم ... فأنتم الغر المرابيع
أنبذل الود لأعدائنا ... وهو عن الإخوة ممنوع
لا يثبت العز على فرقة ... غيرك بالباطل مخدوع

ولكن خلق الطموح فى نفس أبى فراس قد غلب فيه على محبته لاجتماع الشمل ؛ فخرج هو يوماً ما على ابن سيف الدولة ، وأراد أن يأخذ لنفسه جزءاً من ملكه ، وكان الأجدر به أن يكون عضد هذا الابن ، يقويه ، ويشد أزره .

صلته بسيف الدولة

كان الأمير سيف الدولة أكبر من اتصل به شاعرنا ، من بين أفراد أسرته ، فهو ، فضلا عن أنه ابن عمه ، زوج أخته ، ولم تقف علاقتهما عند هذا الحد ، لأنه على ما أرجح ، وعلى ما يظهر من شعر أبى فراس — بعد قتل الأمير سعيد والد شاعرنا ، أراد ناصر الدولة وأخوه سيف الدولة أن يبرا بأولاد القتيل ، فكان أبو فراس من نصيب سيف الدولة ، يعنى بتربيته وتنشئته ، و يظهر أن سيف الدولة قد قام بما وكل إليه خير قيام ، مما دعا شاعرنا فى كل مناسبة ، إلى تسجيل هذا الفضل ، والاعتراف بذلك الجميل ، يذكره بينه و بين نفسه ، و يعلنه لأصدقائه ، و يقر به بينه و بين ابن عمه ، ولا يكاد يذكر هذه التربية ، إلا مفتخراً بها معتزاً ، فيقول لصديقه أبى الحصين :

وكيف ينتصف الأعداء من رجل ... العز أوله ، والمجـــد آخره
ومن سعيد بن حمدان ولادته ... ومن على بن عبد الله سائره
لقد فقدت أبى طفلا ، وكان أبى ... من الرجال كريم العود ناضره
هو ابن عمى ، دنيا حين أنسبه ... لـكنه لى مولى ، لا أناكره
لا زال فى نجوة مما أحاذره ... لا زال فى نجوة مما يحاذره

و يرسل إلى الأمير ، وهو أسير فى بلاد الروم ، و يقول له :

هيهات ، لا أجحد النعماء منعمها ... خلفت يا بن أبى الهيجاء فىَّ أبى

بل إنه لينزل نفسه منه منزلة الولد من أبيه ، يحتمل تأديبه ، و إن كان شديداً على نفسه احتماله ، فقد وقع بين أبى فراس و بعض بنى عمه نفرة ، فلامه الأمير عليها ، و يظهر أنه اشتد فى عتابه ، فقال شاعرنا من قطعة يعاتب بها الأمير :

فصبرت كالولد التقى ؛ لبره ... يغضى على ألم لضرب الوالد

obeikandl.com

وكان لتربية سيف الدولة لهذا اليتيم أثر كبير فى تعشقه للمجد ، وتطلبه أن يكون جديراً بتربية الأمير ، وقد اتخذ من مربيه مثلا أعلى له فى الحرب والمجد ، وها هو ذا يتحدث عن نفسه فى إحدى المعارك قائلا :

ولما لم أجد إلا فرارا أشد من المنية أو حماما
حملت على ورود الموت نفسى وقلت لصحبتى : موتوا كراما
وهل عذر ، وسيف الدين ركنى إذا لم أركب الخطط العظاما
وأقفو فعله فى كل أمر وأجعل فضله أبدا إماما
أرانى كيف أكتسب المعالى وأعطانى على الدهر الذماما
وربانى ففقت به البرايا وأنشأنى فسدت به الأناما

وظل سيف الدولة يحنو على أبى فراس ، ويقدر ما فيه من المواهب الأدبية والحربية ، قال الثعالبى : وكان سيف الدولة يعجب جدا بمحاسن أبى فراس ، ويميزه بالإكرام عن سائر قومه ، ويصطنعه لنفسه ، ويصطحبه فى غزواته .

كتب أبو فراس مرة إلى سيف الدولة ، وقد سار عن حضرته إلى منزله : « كتابى أطال الله بقاء مولانا الأمير سيف الدولة ، وقد وردته ورود السالم الغانم ، موقر الظهر والضمير ، وفاء وشكرا » فاستحسن سيف الدولة بلاغته فى ذلك ؛ فكتب إليه أبو فراس :

هل للفصاحة والسماحة والعلا عنى محيد
إذ كنت سيدى الذى ربيتنى ، وأبى سعيد
فى كل يوم أستفيد من العلاء ، وأستزيد
ويزيد فىَّ إذا رأيتك فى الندى خلق جديد

وكان أبو فراس يوما بين يديه فى نفر من ندمائه ، فقال لهم سيف الدولة : أيكم يجيز قولى ، وليس له إلا سيدى (يعنى أبا فراس) :

لك جسمي تعله فدمى لم تحله

لك من قلبي المكان ، فلم لا تحله ؟

فارتجل أبو فراس ، وقال :

قال : إن كنتَ مالكا فلى الأمر كله

فاستحسنه ، وأعطاه ضيعة بمنبج ، تغل ألفي دينار(١).

ولم يكن سيف الدولة ينعم عليه بالأموال وحدها ، بل ولاه من قبله مدينة منبج ، ومقاطعتها ، عام ستة وثلاثين وثلاثمائة (٩٤٧ م(٢)) . وكان ينيبه عنه فى إمارته كلها ، إذا سافر للقتال ، وكان أبو فراس فى بعض الأحيان يؤثر السفر معه ، ومشاركته مشقات القتال ، على البقاء نائبا عنه فى الشام . حدث أن أراد الأمير النهوض إلى ديار بكر ، فاستخلف أبا فراس مكانه ، فكتب إليه راجيا منه أن يصحبه ، وقال له :

حقا ، لقد ساءنى أمر ذكرت له لولا فراقك لم يوجد له ألم
لا تشغلنى بأرض الشام ، أحرسه إن الشآم على من حله حرم
فإن للثغر سورا من مهابته صخوره من أعادى أهله قمم
لا يحرمنى سيف الدين صحبته فهى الحياة التى تحيا بها النسم
وما اعترضت عليه فى أوامره لكن سألت ، ومن عاداته نعم

وإن استخلافه فى إمارته ليدل على مقدار ما كان يحمله له من ثقة فيه وتقدير له ، يظهران أيضاً فى أنه كان ينيبه عنه فى قيادة الجيش ، يمضى لتأديب الثائرين ، أو معاونة الأولياء والأنصار . وكثيراً ما اشتركا فى الغزو والقتال ، يقدم أبو فراس ، ليستطلع الطريق ، ويثخن فى الأعداء ، أو يوجهه سيف الدولة بعد المعركة ، للقضاء النهائى على عدوه ، أو يشتركان معاً تحت راية واحدة . قال بعض الشعراء يمدح سيف الدولة وأبا فراس ، بعد معركة اشتركا فيها :

طلعت لهم فوق الدروب سحابة تهمى بصوبى عثير وقتام

---

(١) يتيمة الدهر للثعالبي ج ١ ص ١٥ (٢) بلاشير فى كتابه عن المتنبى ص ١٣٥ .

والمسلمون بمعزل منهم سوى من أفردوه لنصرة الإسلام
وأبو فراس فى الهياج أمامه مثل الحسام بدا أمام حسام

وكان سيف الدولة يندب أبا فراس لبناء القلاع، ثقة منه بقدرته على رد عدو يهاجمها، قال ابن خالويه[1]: ندب سيف الدولة أبا فراس سنة ٣٤٠ « لبناء رعبان »، وقد خربتها الزلازل، فبناها فى سبعة وثلاثين يوما، ووافاه « قسطنطين بن الدمستق » ليزيله عنها، فرده بغيظه، فقال الشاعر فى ذلك:

أرضيت ربك، وابن عمك، والقنا وبذلت نفسا لم تزل بذالها
وبنيت مجداً فى ذؤابة « وائل » لو طاولته بنات نعش طالها
رد الجيوش، وقد أتتك ذليلة طعن، ينكب بينها أبطالها
وتركت « رعبانا » بما أوليتها تثنى عليك سهولها وجبالها

وقد عرف أقاربه له هذه المكانة من سيف الدولة، فكانوا يتخذونه الوسيلة إليه، إن غضب عليهم، أو نقم شيئا: حدث أن وجد سيف الدولة على بعض بنى عمه، فاستعطفه أبو فراس بقوله:

إن لم تجاف عن الذنوب وجدتها فينا كثيرة
لكن عادتك الجميلة أن تغضّ على بصيرة

ولم يقصر أبو فراس فى شكر تلك الأيادى والاعتراف بها، وهو يرى جحود هذا الإحسان كفراً بالنعمة، وعدولا عن الحق:

علىّ لسيف الدولة القرم أنعم أوانس، لا ينفرن عنى ربائب
أأجحده إحسانه لى، وإننى لكافر نعمى — إن فعلت — موارب

وشعره بفيض إخلاصا وولاء للأمير، يقول له:

شريتك من دهرى بذى الناس كلهم فلا أنا مبخوس، ولا الدهر باخس

وأهدى الناس إلى سيف الدولة فى بعض الأعياد، وأكثروا، فاستشار أبو فراس

(١) ديوان أبى فراس ص ١٣٩ .

فيما يهديه إليه ، فكل أشار بشىء ، ولم يجده أبو فراس كفءاً للتعبير عما يكنه له من الحب ، فكتب إليه :

نفسى فداؤك ، قد بعثت بعهدتى(١) بيد الرسول
أهديت نفسى ، إنما يهدى الجليل إلى الجليل
وجعلت ما ملكت يدى بشرى المبشر بالقبول
لما رأيتك فى الأنام بلا مثال أو عديل

وبرغم أنه كان والى منبج كان كثير الإقامة عند ابن عمه الأمير ، يشتاق إليه إذا غاب عنه ، ويرجو أوبته السريعة ، إذا رحل الأمير للغزو والقتال :

إذا سار الأمير فلا هدوا لنفسى ، أو يئوب ، ولاقرارا
أرانى الله طلعته سريعاً وأصحبه السلامة حيث سارا

فإذا ألم بأبى فراس المرض يوما ، كان حزنه لأنه لن يلقاه ، أشد من ألمه لما ناله من المرض :

لقد نافسنى الدهر ، بتأخيرى عن الحضرة
فما ألقى من العلة ما ألقى من الحسرة

وإذا مرض سيف الدولة تمنى أن يفديه بنفسه ، ويقول له فى آخر رسالته :

لئن وهبتك نفسا لا نظير لها فما سمحت بها إلا لواهبها

وفى مجالس أنسه يرجو أن يكون بقربه ، يقاسمه جمال الطبيعة فى الربيع ، ويشاركه بهجة الشراب فى ذلك الحين ، ويشعر بوحشة وفراغ ، إذا انفرد دونه بهذا المجلس الشهى .

يأيها الملك الذى أضحت له جل المناقب
نتج الربيع محاسنا ألقحنها غر السحائب

---

(١) كتاب البيع .

obeikandl.com

رقت ، ورق نسيمها   فحكت لنا صور الحبائب
حضر الشراب ، فلم يطب   شرب الشراب، وأنت غائب

وتلك القطعة تدل على ماوصلت إليه صلتهما من عمق وقوة .

حتى إذا قدر على الشاعر الأسر رأيناه يفيض شوقا إلى أميره ، وحنيناً إلى لقائه ، حتى ليجعل ذلك نشيداً يدعو به الله :

يا فارج الكرب العظيم ، وكاشف الخطب الجليل
قربه من سيف الهدى   فى ظل دولته الظليل
لم أرومنه ، ولا شفيت بطول خدمته غليلى

وإلى جانب حبه لسيف الدولة هذا الحب العميق ، كان شديد الإعجاب به ، عظيم التقدير له ، وإنك لتلمس هذا الإعجاب لمساً قوياً فى كل ما يتحدث به أبو فراس عن الأمير الحمدانى ، وتراه حيناً يعلن عجزه عن تصوير خلال الأمير فيقول :

ألا قل لسيف الدولة القرم : إننى   على كل شىء غير وصفك قادر
فلا تلزمنى خطة لا أطيقها   فمجدك غلاب ، وفضلك باهر

ويرى أن مآثر سيف الدولة هى التى جعلت اسم الحمدانيين رفيع الشأن، ومجدهم قوى الدعائم ، وملكهم ثابت الأساس :

بنى لنا العز مرفوعاً دعائمه   وشيد المجد مشتدا مرائره
فما فضائلنا إلا فضائله   ولا مفاخرنا إلا مفاخره

ولولا أن سيف الدولة بنى لهم هذا المجد الحديث ، ما كان أغنى عنهم التغنى بسالف مجد الآباء والأجداد :

لئن كان أصلى من معد نجاره   ففرعى سيف الدولة القرم ناصر
وما كان لولاه ، لينفع أول   إذا لم يرين أول المجد آخر

وأبو فراس يلحظ ما كان يوحى به سيف الدولة من القوة المعنوية ، عند

ما يكون بين جيشه فى القتال ، فإن ثبــانه يبعث فى الجند القوة والثبات فيقول فيه :

فـكان ثباته للقلب قلباً   وهيبته جناحاً للجنــاح

وهنا نقف وقفة قصيرة نتبين فيها : أكان هذا الإعجاب مدعاة لأن يفقد أبو فراس شخصيته أمام ابن عمه ، قد يفهم ذلك من قوله :

ولما ثار سيف الدين ثرنا   كما هيجت آسادا غضابا
أســنته إذا لاقى طعانا   صوارمه إذا لاقى ضرابا
دعانا ، والأسنة مشرعات   فـكنا عند دعوته الجوابا
صنائع فاق صانعها ؛ ففاقت   وغرس طاب غارسه ؛ فطابا

غير أننا بتأمل هـذا الشعر لا نجده أكثر من اعتراف بما لسيف الدولة من مقدرة فى تنشئة جيش بثّ فيه من روحه ، وجند درّبهم خير تدريب ، فكانوا عدته فى الحرب ، وصوارمه فى الطعان . هذا ونحن لا نزال إلى اليوم ننسب إلى القائد النصر ، وما انتصر إلا بجنده البواسل .

أما أبو فراس فلا ينسى نفسه أمام سيف الدولة ، ولا ينسى ما يقوم به من دور فى نيل النصر ، فهو فى تلك القصيدة الطويلة التى أنشأها ؛ للتغنى بمجد أسرته ، لا ينسى نصيبه فى بناء هذا المجد ، ومشاركته فى تأسيس هذه العلياء ، فيقول :

ولو لم يكن فخرى وفخرك واحدا   لما سارعنى بالمدائح ســائر
ولـكننى لا أغفل القول عن فتى   أســاهم فى عليائه ، وأشــاطر
وعن ذكر أيام لنا ومواقف   مكانى فيها بين الفضـل ظاهر

وكثيراً ما كان يمدح سيف الدولة ، ثم يثنى بمدح نفسه ، وقد يطيل فى هذا المدح أكثر من إطالته فى مدح ابن عمه ، مما يدل على أن أبا فراس لم ينس نفسه ، وإنما كان شاعرا بها تمام الشعور .

وسوف نرى ما طرأ على هذه الصلة عندما أسر أبو فراس .

فى الأسر

خاض أبو فراس مع سيف الدولة غمار كثير من الوقائع التى شبت على الحدود ، بين الروم و إمارة الحمدانيين ، وكثيرا ما سجل فى شعره ما ظفر به هو وقومه : من النصر على هؤلاء الأعداء . غير أن النجح الذى كثيراً ما توج هامته ، خانه ، فوقع أسيراً فى يد عدوه ، وكان لهذا الأسر أكبر أثر فى نفسه وشعره .

و إن الآراء المختلفة فى أسره : فمنهم من رأى أن الروم قد هاجموا إمارته ، فخرج إليهم فى سبعين من غلمانه وأصحابه يقاتلهم ، وقدر أن الناس يلحقونه ، فما اتبعوه ، وحملت الروم بعددها عليه فأسر . ومنهم من روى أن جيش الروم عندما أغار على نواحى منبج ، وافق خروج أبى فراس فى عدة يسيرة من غلمانه للصيد ، فوثبوا عليه وقاتلهم ، حتى أثخن بالجراح فأسروه . ومنهم من روى أنه أسر فى معركة من معارك سيف الدولة . وشعره يشير إلى أنه لقى جيش الروم بسبعين فارساً فحسب ، بينما الجيش المهاجم يبلغ ألف جندى ، وذلك حين يقول مخاطباً سيف الدولة أول ما أسر :

ولو لم تنل نفسى ولاءك لم أكن   لأوردها فى نصره كل مورد
ولا كنت ألقى الألف زرقا عيونها   بسبعين ، فيهم كل أشأم أنكد

واختلف المؤرخون كذلك فى مدة أسره : فأبو الحسن الديلمى يقول : إن الروم قد أسرته فى بعض وقائعها ، ونقلته إلى خرشنة ، ثم منها إلى قسطنطينية ، وذلك فى سنة ثمان وأربعين وثلاثمائة ، وفداه سيف الدولة فى سنة خمس وخمسين ، فيكون قد بقى فى الأسر سبع سنين ، وقد أخذ بهذا الرأى ابن العميد فى كتابه : تاريخ المسلمين (١) .

---

(١) ص ٢٢٣ .

obeikandl.com

وقال ابن خلكان [١] بعد أن روى قول أبي الحسن : « وقد نسبوه في ذلك إلى الغلط ، وقالوا : أسر أبو فراس مرتين ، فالمرة الأولى بمغارة الكحل ، في سنة ثمان وأربعين وثلاثمائة ، وما تعدوا به خرشنة ... والمرة الثانية أسره الروم على منبج في شوال سنة إحدى وخمسين ، وحملوه إلى قسطنطينية وأقام في الأسر أربع سنين » .

وممن أخذ بهذا الرأي الأستاذ Brockelmann في الترجمة التي عقدها لأبي فراس في دائرة المعارف الإسلامية [٢] ، ورجحه الأستاذ سامي الكيالي في كتابه : سيف الدولة وعصر الحمدانيين [٣] ؛ وإن صرح في آخر ما كتب بأنه على استعداد لأن يغير فكرته ، إذا ظهر له دليل يخالفها ، وكذلك ارتضاه الأستاذ فؤاد أفرام البستاني ، في بحثه عن أبي فراس المنشور بالمشرق [٤] ، أما الأستاذ جورجي زيدان في كتابه : تاريخ آداب اللغة العربية [٥] ، فقد أغفل ذكر أسره بخرشنة ، ولم يتحدث إلا عن مقامه بالقسطنطينية أربع سنين .

والذي أرجحه أن أبا فراس أسر مرة واحدة ، في شوال سنة إحدى وخمسين وثلاثمائة (٩٦٢ م) ، حيث تكاثر أعداؤه عليه ، ولم يكن معه سوى سبعين ، فسقط في أيدي أعدائه ، وأصابه سهم ، بقي نصله في فخذه ، ونقله أعداؤه إلى خرشنة ، وهي بلدة على الفرات بالقرب من ملطية ، وكان فيها للروم حصن قوي ، ولكن يظهر أنه لم يكن أميناً على الأسرى ، فإن تلك المدينة كانت معرضة لغارات العرب ، كما يفهم ذلك من قول أبي فراس :

إن زرت « خرشنة » أسيراً فلقد أحطت بها مغيراً
ولقد رأيت النار تنتهب المنازل والقصورا
ولقد رأيت السبي يجلب نحونا : حوًّا وحورا

---

(١) وفيات الأعيان ج ١ ص ١٣٧ (٢) المجلد الأول ص ٣٨٧ (٣) ذيل ص ١١٨
(٤) سنة ١٩٢٨ (ص ٢٦٦) (٥) ج ٢ ص ٢٤٩ .

يختار منه الغادة الحسناء ، والظبي الغريرا

فنقل الأسير إلى مكان حصين ، بعيد عن متناول يد المسلمين ، فى القسطنطينية ، حيث ظل إلى سنة خمس وخمسين وثلاثمائة ، حين فداه سيف الدولة .

أما الأسباب التى حملتنى على ترجيح هذا الرأى فكثيرة :

منها أن أقرب مؤرخيه إليه ، وهم ابن خالويه (توفى سنة ٣٧٠) والقاضى التنوخى (توفى سنة ٣٨٤) والثعالبى (توفى سنة ٤٢٩) لم يروا إلا أنه أسر مرة واحدة ، قال القاضى التنوخى : « أقام فى أيديهم أسيراً سنين . . . والأيام تتدافع إلى أن وقع الفداء ، قبيل موت سيف الدولة ، فى سنة خمس وخمسين وثلاثمائة[1] » . وقال الثعالبى : « أسرته الروم فى بعض وقائعها ، وهو جريح ، وقد أصابه سهم ، بقى نصله فى فخذه ، وحمل مثخنا بخرشنة ، ثم بقسطنطينية ، وتطاولت مدته بها ، لتعذر المفاداة » . ولو أنه كان قد أسر مرتين ما أغفل الإشارة إليها هؤلاء المؤرخون .

ومنها تهافت رواية نجاته من الأسر الأول ؛ فابن خلكان يروى أنه يقال : « إنه ركب فرسه ، وركضه برجله ، فأهوى به من أعلى الحصن ، إلى الفرات » ؛ ولعله شعر بهذا التهافت ، فقال بعد أن روى ذلك : « والله أعلم » .

ويقبل هذه الفكرة بروكلمان ، فيقول بعد أن روى أسره الأول : « ثم نجح فى الفرار ، وربما تم له ذلك ، بعد أن قفز قفزة جريئة » .

أما البستانى فى دائرة معارفه فينفى ذلك ، ولا يقبله ، ويقول بعد أن روى ما نقله ابن خلكان : « وهو مما لا يعول عليه » .

ومما يدل على أن أسيراً كأبى فراس ما كان يستطيع الإفلات على فرس كما زعموا ، أن العدو كان يقيد أسراه بخرشنة بالأغلال فى أرجلهم ، قال أبو فراس على لسان أمه :

---

(١) راجع ديوان أبى فراس ج ٣ ص ٤٦١ .

يا من رأى لى بحصن خرشنة   أســـد شرى ، فى القيود أرجلها

بقى أن يقال: إن سيف الدولة قد فداه ، وذلك أبعد ما يكون عن الصواب؛ فلو أن ذلك قد تم لتحدث به أبو فراس فى شعره ، وذكره لسيف الدولة بين ما ذكر من مآثره عليه ، وحدثه به عندما كان أسيراً فى القسطنطينية ، يغريه بفدائه ، كما فداه أول مرة ، وليس فيما بين أيدينا من شعر أبى فراس ما يثبت ذلك ، أو يدل عليه ، بل ليس فى شعره ما يدل على أنه أسر مرتين .

ومنها أن ما يقال من أنه أرسل ، وهو فى الأسر قصيدة إلى أبى الحصين قاضى حلب ، الذى مات سنة تسع وأربعين وثلاثمائة ، وما يستنبط لذلك من أن أبا فراس يجب أن يكون أسيراً قبل هذا التاريخ — خطأ لا يستند إلى دليل ، فإن القصيدة التى أرسلها أبو الحصين إلى أبى فراس ، وهى مثبتة فى كتاب يتيمة الدهر(١) ليس فيها إشارة ما إلى هذا الأسر ، والقصيدة التى أرسلها أبو فراس إليه ، والتى أولها :

كيف السبيل إلى طيف تزاوره   والنوم ،فى جملة الأحباب ، هاجره

ليس فيها كذلك إشارة ما ، بل على العكس فيها ما يدل على أن أبا الحصين كان هو الراحل البعيد ، لا أبا فراس ، وليس فى القصيدة نبرة واحدة تدل على حزن أو أسر ، وطبعة بيروت الثانية هى التى وضعت تلك القصيدة تحت عنوان أنها قيلت فى الأسر .

بقى بعدئذ تلك الرواية الأجنبية ، التى يذكرها الأستاذ بوران فى كتابه : Alep autrefois et aujourd'hui ، فإنه يذكر أن سيف الدولة قد منى سنة ٩٦٠ م (٣٤٩ هـ) بهزيمة شنيعة عنـد خرشنة ، عاد بعدها إلى حلب ، فى ثلاثمائة فارس فقط ، وأسر البيزنطيون عدداً كبيراً من رجاله ، منهم أبو العشائر أحد أقرباء الأمير ، والشاعر أبو فراس . و إن هناك لمجالا للشك فى تلك الرواية ؛

---

(١) جـ ١ ص ١٨ .

فهى لا تتفق مع الرواية العربية فى مكان الأسر ، فبينما تذكر الرواية العربية أن مكان أسره هو مغارة الكحل ، ثم نقل إلى خرشنة ، تجعله الرواية الأجنبية خرشنة نفسها ، ثم تتلاشى قيمة هذه الرواية ، إذا علمنا أن أبا فراس قد أرسل إلى أبي العشائر عدة قصائد ، حين كان أبو العشائر أسيراً فى أيدى الروم ، وفى إحداها يقول :

أسرت ، فلم أذق للنوم طعما ولا حل المقـــام لنا حزاما
وسرنا معلمـــين إليك ، حتى ضربنا خلف خرشنة خيـــاما

فهو قد كان إذاً حراً طليقاً ، حين أسر أبو العشائر ، لم يؤسر معه ، كما هو واضح من هذا الشعر ، ولم يؤسر قبله ، ولم ينزل ضيفاً بخرشنة ، لأن ذلك لو كان قد تم ، لسلاه بذلك أبو فراس ، وهون عليه خطب الأسر . ولم يكن سيف الدولة قد فداه — كما يقال — ولو أنه كان فداه ، لذكره لأبى العشائر ، كما ذكر له أن سيف الدولة سبق أن افتدى ابن عمه أبا وائل ، فقد قال :

وقيل: لها سيف الهدى، قلت : إنه ليفعل خـير الفاعلين ، ويكرم
أما انتاش من مسِّ الحديد وثقله أبا وائل ، والبيض بالبيض تحـكم

من ذلك يبدو أن أبا فراس لم يؤسر فى ذلك التاريخ ؛ ولا قبل ذلك التاريخ ،ولهذا نرجح أنه أسر مرة واحدة ، فى شوال سنة إحدى وخمسين وثلاثمائة ، وقد حاصره الروم وأسروه ، ثم تركوا منبج ، ذاهبين إلى حلب التى دخلوها ، وأعملوا فيها القتل والنهب والتدمير ، فى ذى القعدة ، من تلك السنة عينها .

أصيب أبو فراس إذاً وهو يدافع عن مدينته ، بسهم بقى نصله فى فخذه ، واضطر إلى أن يشق فخذه ، ليخرج منه هذا النصل ، وقد قال فى ذلك :

فلا تصفن الحرب عندى ، فإنها طعامى ، مذ بعت الصبا ، وشرابى
وقد عرفت وقع المسامير مهجتى وشقق عن زرق النصول إهابى

ويقال إن نصل السهم بقى فى بدنه سنتين ونصفاً ، وشق عليه ست مرات ، حتى خرج .

وقطع الشاعر طريقه إلى منفاه تشتد به العلة ، ويؤلمه الجرح ، فهو يشكو ، ويتجه إلى الله ، سائلا أن يكشف عنه كربه ، قائلا :

يا فارج الكرب العظيم ، وكاشف الخطب الجليل
كن يا قوى لذا الضعيف ، ويا عزيز لذا الذليل

والظاهر أن الجراح التى نالته قد ثقلت عليه فى منفاه ، فكتب إلى أمه ، يحاول أن يجلب إلى قلبها الصبر ، فأبى ما فيه من الأسى إلا أن يكون شعره حزيناً باكياً ، يثير أمه ، ولا يبعث إليها الهدوء . وهل تستطيع أمٌّ أن تسمع ابنها يقول :

مصابى جليل ، والعزاء جميل وظنى بأن الله سوف يزيل
جراح تحاماها الأساة ؛ مخافة وسقمان : باد منهما ودخيل
وأسر أقاسيه ، وليل نجومه أرى كل شىء غيرهن يزول
تطول بى السَّاعات ، وهى قصيرة وفى كل دهر لا يسرك طول

ولا يملأ قلبها الهم ، وتذرف الدمع سخينا ، برغم ما يسوقه لها من الحكم وحوادث التاريخ ؟!

وأرسل رسالة أخرى إلى سيف الدولة ، يسأله أن يفديه ، حتى لا يموت موسدا بين أيدى النصارى ، فيقول له :

دعوتك للجفن القريح المسهد لدىّ ، وللنوم القليل المشرّد
وما ذاك بخلا بالحياة ، وإنها لأول مبذول لأول مجتد
ولكننى أختار موت بنى أبى على سروات الخيل ، غير موسد
وآبى ، وتأبى أن أموت ، موسدا بأيدى النصارى موت أكمد أكبد

ولقد كانت قصيدة أبى فرس إلى أمه ، وما كان يرد إليها من أخبار الأسرى ،

سبباً فى مرض هذه الأم ، فتركت منبج إلى حلب ، تريد من سيف الدولة أن يفدى واحدها أبا فراس ، وتضرعت إليه ، فلم تجد عنده ما كانت تؤمل من حسن الإيجاب « ووافق ذلك عنفاً من الدمستق بأبى فراس ومن معه من الأسرى ، وزيادة فى إرهاقهم [1] » ، فكتب إلى سيف الدولة قصيدة طويلة ، أحب أن أقف قليلا عند بعض أبياتها ، فإنها تلقى الضوء على حياة الأسرى فى ذلك الحين .

بدأ الشاعر قصيدته بوصف ما تجده أمه : من الحزن والمرض ، والوحدة ، والأسى لفراقه ، فهى :

عليلة بالشآم ، مفردة　　بات بأيدى العدا معللها
تمسك أحشاءها على حرق　　تطفئها ، والهموم تشعلها
إذا اطمأنت وأين ؟! أو هدأت　　عنت لها ذكرى تقلقلها
تسأل عنا الركبان جاهدة　　بأدمع ما تكاد تمهلها :
يا من رأى لى بحصن خرشنة　　أسد شرى ، فى القيود أرجلها
يا من رأى لى الدروب شامخة　　دون لقاء الحبيب أطولها
يا من رأى لى القيود موثقة　　على حبيب الفؤاد أثقلها

وصف طبيعى ، لا غلو فيه ولا إغراق ، لأم وحيدها بين يدى أعدائه ، لا تدرى متى يئوب ؟ وتنجد أبا فراس شجاعته ، وتعود إليه ذكريات حروبه ، فيحدث أمه بأن تلك هى عادة الحروب ، فهو إذا وقع اليوم أسيرا فطالما أسر ، وإذا كان يشرب اليوم كأسا مريرة ، فطالما سقى بها غيره من قبل ، حتى إذا فرغ من حديث أمه ، اتجه إلى ابن عمه ، فأطال معه الحديث ، رفيقاً مرة وعنيفاً أخرى ، يترفق به ، ويبدى له غاية الحب والوفاء ، اللذين كان جديرا بسيف الدولة أن يقابلهما برد الأم الملتاعة رداً جميلا :

---

(١) يتيمة الدهر ج ١ ص ٥٠ .

يا سيدا ، ما تعد مكرمة إلا وفى راحتيه أكملها

ليست تنال القيود من قدمى وفى اتباعى رضاك أحملها

بأى عذر رددت والهة عليك دون الورى معولها

جاءتك تمتاح رد واحدها ينتظر الناس كيف تقفلها

سمحت منى بمهجة كرمت أنت ، على يأسها ، مؤملها

إن كنت لم تبذل الفداء لها فلم أزل فى رضاك أبذلها

ثم يعنف عليه ، ويحاسبه ، ويسأله كيف يستطيع أن يعيش الحياة الهانئة الوادعة ، وهم يعانون مرارة الأسر ، وما فيه من ذل وإرهاق ، وهنا يضع الشاعر أمامنا ،صورة لحياة هؤلاء الأسرى ، وما كانوا يلاقونه : من الضر والعناء ، إذ يقول :

يا واسع الدار ، كيف توسعها ونحن فى صخرة نزلزلهـــا

يا ناعم الثوب ، كيف تبدله ثيابنا الصوف ، ما نبدلهـــا

يا راكب الخيل ، لو بصرت بنا نحمل أقيـــادنا ، وننقلها

رأيت فى الضر أوجها كرمت فارق فيك الجمال أجملها

فهم فى الأسر يلبسون خشن الثياب ، ولا يبدلونها ، يسيرون والقيود فى أرجلهم ، وعملهم تحت الحجارة وحملها ، وهم يشبهون فى ذلك المسجونين عندنا فى سجن طره . وليس احتمال مثل هذا السجن يسيراً ، على رجل كأبى فراس ، فكان شديد البرم والضيق ، حتى ليفضل الموت على الحياة ، فقد كتب مع هذه القصيدة هذين البيتين الضجرين :

قد عـذب الموت بأفواهنا والموت خير من مقام الذليل

إنا إلى الله ، لمـــا نابنا وفى سبيل الله خير السبيل

والظاهر أن سيف الدولة لم يقابل أم الشاعر بصدر رحب ، ولم يجبها إلى ما تطلبه من فداء ابنها ؛ لهذه الحالة النفسية المستولية على الأمير ، بعد أن خرب

الروم عاصمة ملكه ، ولأنه على ما يظهر كان غاضباً على أبى فراس ، فقد كان سيف الدولة معتزا بنفسه ،إلى آخر حدود الاعتزاز ، ور بما كان البرم الذى استولى على الشاعر ، قد دفعه إلى أن يفكر فى الالتجاء إلى غير سيف الدولة يفديه ، ور بما تحدث بذلك ، فنقل إلى سيف الدولة حديثه ، فغضب ، و يدلنا على ذلك أن أبا فراس يتحدث إلى ابن عمه ، كأنه يعتذر عن هذا التفكير ، أو يلتمس له سبباً ؛ فيقول له :

فلا تكالنا فيها إلى أحد   معلمها محسن يعللها
لا يفتح الناس باب مكرمة   صاحبها المستغاث يقفلها
أينبرى دونك الكرام لها   وأنت قمقامها وأحملها
فإن سألنا سواك عارفة   فبعد قطع الرجاء نسألها
إذا رأينا أولى الكرام بها   يضيعها جاهدا ، و يهملها

و يروى الثعالبي أن أبا فراس كتب إلى سيف الدولة : « مفاداتى إن تعذرت عليك فأذن لى فى مكاتبة أهل خراسان ، ومراسلتهم ؛ ليفادونى ، و ينو بوا عنك فى أمرى [1] » ، فأجاب سيف الدولة بكلام خشن ، وقال له : « ومن يعرفك بخراسان ؟! » . ولقد كان هذا الجواب سبب ثورة عنيفة فى نفس أبى فراس ، فهو يقبل كل شىء ، حتى الأسر ، بنفس راضية ، ولكنه لا يقبل أن يرمى بالخمول ، فأرسل إلى ابن عمه قصيدة ثائرة ، يعتب عليه فيها عتباً صريحاً ، و يدفع عن نفسه تهمة الخمول ، و يقول له : إن الخمول إذا استطاع أن يلم به ، فليس له من سبب ، إلا أنه قصر نفسه على خدمة سيف الدولة ، ولم يفارق مدينة حلب :

وما غض منى هذا الإسار ، ولكن خلصت خلوص الذهب
ففيم يقرّعنى بالخمول مولى به نلت أعلى الرتب

(١) يتيمة الدهر ج ١ ص ٥٧ .

obeikandi.com

وكان عتيدا لدىّ الجواب ، ولكن لهيبته لم أجب
فلا تنسبن إلىّ الخمول ، عليك أقمت ، فلم أغترب
وأصبحت منك ، فإن كان فضل ، و إن كان نقص فأنت السبب
فإن خراسان إن أنكرت علاى فقد عرفتها حلب

ثم يعود فينكر أن يكون ثمت ما يدعو إلى خفاء اسمه ، ونقصان شهرته ، فيقول :

ومن أين ينكرنى الأبعدون ؟ أمن نقص جدّ ؟ أمن نقص أب ؟
ألست و إياك من أسرة وبينى وبينك عرق النسب ؟ !
وداد تناسب فيه الكرام ، وتربية ومحل أشب
ونفس تكبر إلا عليك ، وترغب إلاك عمن رغب

ولعل السبب فى تفكير أبى فراس فى الالتجاء إلى الخراسانيّين ، أنّ هؤلاء كانوا فى ذلك الحين متحمسين أشد التحمس ؛ للدفاع عن الثغور الإسلامية ، ويروى المؤرخون أن قائدا وصل إلى الشام من خراسان ، « ومعه خمسة آلاف متطوع للجهاد ، فأخذهم سيف الدولة ، وسار بهم نحو بلاد الروم ، فوجدوا الروم قد عادوا ، فتفرق الغزاة الخراسانية فى الثغور ، وعاد أكثرهم إلى بلادهم [1] » .

و يظهر أن أبا فراس فى أول عهده بالأسر ، كان يعتقد أن قومه — وغزو الروم لبلادهم لا يكاد ينقطع ، وأبو فراس بينهم مشهور بالبسالة والقوة — لا يلبثون أن يبذلوا ما يطلبه الروم من فداء لبطلهم ، حتى ينتفعوا بمواهبه ونبوغه ، وقد كان أبو فراس معجباً بهذه المواهب ، مؤمناً بأنه أوتى منها ما لم يؤت سواه ، مقتنعاً بأن غيره لن يسد فراغاً خلاه ، ولن يملأ المكان الذى كان يشغله ، و إذا كان الأمر كذلك ، فلا بد أن قومه سيسرعون إلى فدائه من الأسر .

---

(١) محاضرات الخضرى فى تاريخ الدولة العباسية ص ٤٣٦ .

سيذكرنى قومى إذا جدّ جدّهم وفى الليلة الظلماء يفتقد البدر
ولو سد غيرى ما سددت اكتفوا به وما كان يغلو التبر لو نفق الصفر

ولكن الأيام تمضى والحروب تتوالى ، وقومه لا يسرعون إلى فدائه ، كما كان يعتقد ، بل لقد استبدلوا به غيره ، فيأسى ، ويقول :

إني أغار على مكانى أن أري فيه رجالا ، لا تسد مكانى
أو أن تكون وقيعة أو غارة مالى بها أثر مع الفتيان

ولم يسرع سيف الدولة إلى فدائه ، فظل فى الأسر أربع سنين ، كانت حياته فيها بائسة كل البؤس ، شقية كل الشقاء ، حتى صح له أن يصرخ بعد عامين قضاهما فى ديار الروم ، ملتمساً وقتاً يسر به فؤاده :

أما ليلة تمضى ، ولا بعض ليلة أسر بها هذا الفؤاد الموجعا ؟

وكيف يستطيع هذا الفؤاد أن يسر ، وقد ترك فى الشام آله وأحبابه ، لا يدرى متى يراهم ومتى يعود إليهم :

إن فى الأسر لصبا دمعه فى الخد صب
هو فى الروم مقيم وله فى الشام قلب

ولم يكن شوق أهله الأدنين إليه و إلى مجالسه وأحاديثه ، بأقل من شوقه إليهم :

تشوقنى الأهل الكرام ، وأوحشت مواكب بعدى عندهم ، ومجالس

فهناك فى منبج كانت تقيم أمه ، التى كانت له فى مكان الأب والأم معا ، وقد أصبحت عجوزاً مريضة تحتاج إلى من يسهر عليها ، ويرعاها ، فيؤلمه بعده عنها وبكاؤها عليه ، ويدفعه ذلك إلى الإلحاح على ابن عمّه فى طلب الفداء ، ولو أن فى هذا الطلب غضاضة عليه :

لولا العجوز بمنبج ما خفت أسباب المنيّة
ولكان لى عما سألت من الفدا نفس أبيّة
لكن أردت مرادها ولو انجذبت إلى الدنيّة

وأرى محاماتى عليهـــا أن تضام من الحمِيَّة
أمست بمنبج حــرة بالحزن من بعدى حرية

ولا يملك لها هذا الابن الأسير إلا أن يدعوها إلى الصبر وجميل الأمل ،

يا أمتا ، لا تيأسى لله ألطاف خفيَّــة
كم حادث عنا جلا ه ، وكم كفانا من بليَّــة
أوصيك بالصبر الجميـــل ، فإنه خير الوصيَّــة

وهنــاك فى منبج ، إلى جانب أمه التى رضاها عنه أقوى ما كان يعتز به ، وأنفس مايدخره — أطفال صبية صغار ، يتخيلهم أمامه ، يفرحون و يمرحون : وأصدقاء أثيرون عنده ، قضى معهم عهد الشباب الغض والطفولة المرحة ؛ و إن ذكريات هؤلاء الأعزاء جميعاً لتتكاثر على قلبه ، وتتزاحم فيقول :

لأيــكم أذكــر وفى أيكم أفــكر
وكم لى على بلدتى بكاء ومســــتعبر
فنى حلب عدتى وعزى والمفخـــر
وفى منبج من رضا ه أنفس ما أذخر
ومن حبــه زلفــة بها يكرم المحشر
واصبية كالفراخ ، أكبرهم أصغر
وقوم ألفنـــاهم وغصن الصبا أخضر
فحزنى ما ينقضى ودمعى ما يفـــتر

وكان شوقه إلى ملاعب صباه وطفولته بمنبج قويا عنيفا ، فلطالما تصور تلك الأماكن واضحة فى ذهنه ، تقف نفسه عند كل واحد منها ، يستوحى جمال الطبيعة فيه ، و يستذكر ما كان يشعر به من اللذة والبهجة ، عندما كان يقف بتلك النواحى الأثيرة لديه ، فيحاول أن يستبدل بصورتها الطبيعية التى لا يستطيع أن يراها — صورة يرسمها القلم لها ، و يسجل فى الصورة أسماءها المحبوبة إلى قلبه :

قف فى رسوم « المستجاب » ، وحىّ أكناف « المصلى »
« فالجوسق » الميمون ، « فالسقيا » بهـــا ، فالنهر أعلى
تلك المنـــازل والملاعب ، لا أرها الله محلا
حيث التفتّ رأيت ماء سـابحا ، وسكنت ظلا
تر دار « وادى عين قاصر » منزلا رحبـــا مطلا
وتحل « بالجسر » الجنـان ، وتسكن الحصن المعلى
وإذا نزلنـــا « بالسواجير » اجتنينا العيش سهلا
والماء يفصل بين زهر الروض فى الشطين فصـــلا
كبساط وشى ، جرّدت أيدى القيون عليه نصلا

وإن مثل هذا الأسير الذى ارتسمت فى ذهنه تلك الملاعب والمنازل ليتمنى أن يفك عنه الوثاق ؛ ليقضى حقوق تلك الديار التى ملأ الشوق إليها فؤاده : فيقف لدى كل مكان يبل برؤيته غليله ، ويروى ظمأه لو استطاع :

فرض على لـكل دار وقفـة   تقضى حقوق الدار والأجفـان

مثل هذا الأسير المبعد عن الأهل والوطن تمر به الأيام متثاقلة ، وتمضى به الليالى طويلة متلـكئة :

تطول بى الساعات ، وهى قصيرة   وفى كل دهر لا يسرك طول

ويستقبل العيد حزينا كئيبا ، ولا نجد غريبا منه أن تثور نفسه ، عندما يستمع إلى ورقاء تغرد فوق شجرة عالية ، فيحسب هذا التغريد بكاء وعويلا ، فيأنس بتلك الحمامة ، أنس الجار إلى الجار ، ويطارحها ما يحس به : من ألم النوى وعذاب الأسر ، فيقول :

أقول ، وقد ناحت بقربى حمـامة :   أيا جارتى ، هل بات حالك حالى
معاذ الهوى ، ما ذقت طارقة النوى   ولا خطرت منك الهموم ببال
تعـالى ترى روحا لدى ضعيفة   تردد فى جسم يعـذب بال

ولقد اعترف الشاعر صراحة وهو فى الأسر ، بأن روحه ضعيفة لا تطيقه ، ونطق شعره بهذا الجزع الذى استولى على نفسه ؛ فكان ذلك مدعاة لأن يرسل إليه بعض أصدقائه يوصيه بالصبر والتجلد ، وكتب هو إلى أخيه يحدثه عن جزعه ، ونفسه التى تحاول دره هذا الجزع ، و إخفاءه عن الحاسدين :

وإنى لجزاع ، ولكن همتى تدافع عنى حسرة وتغالب
ورقبة حساد ، صبرت ؛ اتقاءها لها جانب منى ، وللحزن جانب

فكان بإعلانه إخفاء الجزع معترفا به ، مقراً بماله من صولة على نفسه . وكثيراً ما لام نفسه على هذا الجزع الذى شمله ، فيذكر أنه ما دام قائداً فى الحرب فهو معرض للأسر والقتل ، وما دام قد رضى بأن يكون معرضا لهما فلا وجه للجزع ، و إذا كان قد آلم أهله بأسره ، فقد سرهم من قبل بنصره ، و إذا كان قد وقع أسيرا ، فقد كان من قبل آمراً :

مالى جزعت من الخطوب ، و إنما أخذ المهيمن بعض ما أعطانى
ولقد سررت ، كما غممت عشائرى زمنا ، وهنأنى الذى عزانى
وأسرت فى مجرى خيولى غازيا وحبست فيما أشعلت نيرانى

و إذا صح أن الروم لم يدعوا أبا فراس مع بقية الأسرى ، بل أفردوا له بيتا خاصاً به ، فلقد كان يثيره تلك الحياة الخاملة التى لا عمل فيها ، يضطر إليها شاب ، ملء إهابه صحة وعزم وآمال ، يريد أن ينشىء ملكا وأن يكون دولة ؛ فيأسى على ماضيه ، و يوازن بينه و بين هذا الحاضر الخامل الذى يعيش فيه ، غير مستطيع أن ينفع وأن يضر فيقول :

تمرّ الليالى ، ليس للنفع موضع لدىّ ، ولا للمعتفين جناب
ولا شدّ لى سرج على ظهر سابح ولا ضربت لى بالعراء قباب
ولا برقت لى فى اللقاء قواطع ولا لمعت لى فى الحروب حراب

وكان ذكر الماضى يدفعه إلى الفخر به ، وذكر بلائه الحسن فيه ، وذلك

ضرب — ولا ريب — من ضروب التسلية ، تخفف اللوعة على نفوس المحرومين ، فسمعنا الشاعر يقول ، وهو فى الأسر :

وإنى لنزال بكل مخوفة كثير إلى نزالها النظر الشزر
وإنى لجرار لكل كتيبة معودة ألا يخل بها النصر
فأصدى ، إلى أن ترتوى البيض والقنا
وأسغب ، حتى يشبع الذئب والنسر
ويارب دار لم تخفنى منيعة طلعت عليها بالردى أنا والفجر

بل لقد يشتط ويبالغ ، إرضاء لنفسه الحبيسة ، فيقول :

وأنا الذى ملأ البسيطة كلها نارى ، وطنب فى السماء دخانى
إن لم تكن طالت سنىّ فإنّ لى رأى الكهول وغيرة الشبان

ولقد ظل الشاعر حيناً طويلا يحاسب نفسه : أكان محقاً فى التعرض للأسر ؟ أم كان الأجدر به أن يفر من وجه العدو ؟ ولكنه ينتهى إلى الاقتناع بأن ما قام به هو الرأى ووجه الصواب ، وإن كان كثيرون قد خالفوه فى نهجه ، عن حب له ، ورغبة فى أن يعيش طليقاً ، لا يد للعدو عليه ، أو عن حسد له ، ورغبة فى الحط من شأن خطته التى أوقعته فى الأسر .

لم يتردد أبو فراس ، بل فضل الأسر على الفرار ، معتقداً أن فى الفرار العار كل العار :

وقال أصيحابى : الفرار ، أو الردى فقلت : هما أمران ، أحلاهما مر
ولكننى أمضى لما لا يعيبنى وحسبك من أمرين خيرهما الأسر

ويرسل إلى أحد أصدقائه قائلا :

تجشمت ، خوف العار ، أعظم خطة وأمّلت نصراً ، كان غير قريب

ويقول لسيف الدولة ، محدثاً له عن هؤلاء الذين زينوا له الفرار ، يستنكر رأيهم :

يقولون: «جنّب» . عادة ماعرفتها   شديد على الإنسان مالم يعود
فقلت : أما والله ، ما قال قائل :   شهدت له فى الخيل ألأم مشهد
ولكن سألقاها : فإما منية   هى الظن ، أو بنيان عز مشيد

وكان هذا الأمر مجالا ، كما قلت ، لحساد أبى فراس ، والطاعنين فى كفاءته ومقدرته .

والناس : من يلق خيرا قائلون له   ما يشتهى ، ولأم المخطىء الهبل

وقد رد على هؤلاء أبو فراس رد البطل الذى يقدم على الموت ، وهو يرى الموت ، وها هو ذا يقول لأخيه أبى الهيجاء ، فى قصيدة أرسلها إليه :

تكاثر لوامى على ما أصابنى   كأن لم تنب إلا بأسرى النوائب
يقولون : لم ينظر عواقب أمره   ومثلى من تجرى عليه العواقب
ألم يعلم الذلان أن بنى الوغى   كذاك : سليب بالرّماح ، وسالب
أرى ملء عينى الردى ، فأخوضه   إذ الموت قدامى ، وخلفى المعايب
ومن شرفى ألا يزال يعيبنى   حسود على الأمر الذى هو عائب

ولم يكن أبو فراس يعتقد أن أسره واخفاقه فى الحرب ، نشأ عن تقصير منه فى الدفاع ، أو فى الكر والفر وصنوف الجهاد ، فذلك أبعد الأشياء عنه ، ولكنه أسر ، لأن إرادة الله القوى هى التى مهدت لهذا الأسر ، وقضاء الله لا غالب له ، ولا هارب منه :

أسرت ، وماصحبى بعزل لدى الوغى   ولا فرسى مهر ، ولا ربه غمر
ولكن إذا حم القضاء على امرىء   فليس له برّ يقيه ، ولا بحر

كان أبو فراس إذاً يعتقد أنه لم يقصر فى واجب ألقى على عاتقه ، بل لقد كان يستعرض ماضيه كله ، فلا يجد فيه ما يشين اسمه ، أو يغض من قيمته ، فإذا خطر بباله أنه ربما مات فى الأسر ، هون عليه استقبال هذا الموت ما كان يخالجه من الإيمان بأنه خلف وراءه ذكراً طيبا .

أبيت مبرَّأً من كل عيب ... وأصبح سالماً من كلّ ذام
ومن أبقى الذى أبقيت هانت ... عليه موارد الموت الزؤام
ثناء طيّب ، لا خلف فيه ... وآثار كآثار الغمام

وإلى جانب ما كان يقاسيه أبو فراس فى هذا الأسر ، من المرض ، والبعد عن الأهل ، والاغتراب عن الوطن ، والاضطرار إلى حياة فارغة من المجد والبطولة ، ومقاساة ما كان يرميه به أعداؤه من خطل الراى — كان يلاقى من آسريه الإهانة فى الكرامة ، ومحاولة المساس بالدين ، فى مناظرة جرت بينه وبين الدمستق ، قال له هذا : « ما لكم وللحرب ، إنما أنتم كتاب » ؛ فقال له أبو فراس : « نحن نطأ أرضك منذ ستين سنة بالسيوف أم بالأقلام ؟ وذكر له أسماء الوقائع وأسماء الأسرى ، حتى يكون لكلامه ميزة الصدق ، والابتعاد عن الفخر الكاذب ،الذى لا دليل عليه ، وفيها يقول :

أتزعم يا ضخم اللغاديد أننا ... ونحن أسود الحرب ، لا نعرف الحربا
فويلك من للحرب؟! إن لم نكن لها ... ومن ذا الذى يضحى و يمسى لها تربا
لقد جمعتنا الحرب من قبل هذه ... فكنا بها أسداً ، وكنت بها كلبا
بأقلامنا أجحرت أم بسيوفنا ؟ ! ... وأسد الشرى قدنا إليك أم الكتبا ؟!

والقصيدة الثانية أكاد استنبط منها أنه قد كان هناك تبشير بالدين المسيحى بين أسرى المسلمين ؛ ففيها يعجب أن الدّمستق ، محاطا ببطارقته ، يحاول أن يشرح له الحلال والحرام ؛ فإذا كان الدمستق يجرؤ على أن يخاطب أبا فراس ، (ومكانته فى الجيش ومن الأمير الحمدانىّ مكانته) ، فإن غير أبى فراس أقرب منه منالا ، وأدنى إلى أن ينال منه الترغيب والترهيب يقول أبو فراس فى ذلك :

أما من أعجب الأشياء علج ... يعرفنى الحلال من الحرام
وتكنفه بطارقة تيوس ... تبارى بالعثانين الضخام
لهم خلق الحمير فلست تلقى ... فتى منهم يسير بلا حزام

ولم يكن يخفف على أبى فراس شدة أسره طول هذه المدة ، سوى ما كان من تزاور بينه و بين الأسرى ، ولا سيما أخوه أبو الفضل ، فقد جعل ملك الروم يوم السبت يوما يتزاورون فيه .

كانت تلك الحياة التى حاولنا رسمها مدعاة إلى أن يلح أبو فراس على ابن عمه سيف الدولة أن يفديه ، وقد رأينا فيما مضى كيف أرسل إليه يخبره بأنه يخشى الموت بين يدى عدوه ، ورأينا كيف ذهبت أمه تستعطف سيف الدولة أن يفدى وحيدها ، وقلنا : لعل السبب فى إغفال سيف الدولة أمر أبى فراس هو ما سمعه من أن الأسير فكر فى الالتجاء إلى غيره ، ثم ها هى ذى الأيام تمضى ، وسيف الدولة يسوف ولا يفدى ، وأبو فراس لا يفتأ يرسل إليه القصائد ، يرجوه أن يبذل له الفداء ، ويحدثه حديثاً مسهباً عن الدوافع التى تحمل سيف الدولة على فدائه ، و يرسل إليه الشعر الباكى الشاكى ، عساه يجد السبيل إلى قلبه ، و يلمس موضع العطف من فؤاده .

كان يحدث سيف الدولة حينا عن فرقه من الموت فى ديار الغربة ، و يذكر له الأيادى التى غمره بها طول عمره ، وسوف يكون فداؤه من أعظم تلك الأيادى وأكرمها ، ويحدثه بأن موته على تلك الطريقة سوف يشين علاءه و يعيبه . و يثيره حيناً بأن كلب الروم مجد فى فداء أمرائه ، الذين كانوا عند سيف الدولة ، فهل يسوغ أن يكون سيف الدولة أقل منه رأفة وعطفاً . و يذكره طورا بأن هذا الفداء لن يعود نفعه على الأسير فحسب ، ولكن فائدته ستعود عليهم ، قبل أن تعود عليه ؛ فليس من السهل أن يجدوا فتى مثله ، يدافع عن أحسابهم بلسانه ، و يطاعن عنهم بحسامه . وطوراً يصارحه بأنه طالما أورد نفسه موارد الهلكة ، فى سبيل نصرته ، بل إن هذا الأسر كان بسبب الدفاع عن مملكة سيف الدولة ، و إن أبا فراس لنصيره ومعينه ، وليس اثنان يتعاونان على بناء المجد ، يقوم مقامهما واحد ، مهما كانت قدرته . ثم لقد اعتاد شاعرنا العيش بجوار سيف

obeikandi.com

الدولة ؛ فكيف يستطيع أن يعيش بعيداً عنه .

بهذا ومثله كان يحث ابن عمه على فدائه ، ولننصت إليه وهو يخاطبه قائلا :

ولا تقعدن عنى — وقد سيم فديتى — ... فلست عن الفعل الكريم بمقعد
فكم لك عندى : من أياد وأنعم ؟ ... رفعت بها قدرى ، وأكثرت حسدى
تشبث بها أكرومة ، قبل فوتها ... وقم فى خلاصى صادق العزم ، واقعد
فلا كان كلب الروم أرأف منكم ... وأرغب فى كسب الثناء المخلد
متى تخلف الأيام مثلى لكم فتى ... طويل نجاد السيف رحب المقلد ؟
فإن تفتدونى تفتدوا شرف العلا ... وأسرع عوّاد إليها معود
وإن تفتدونى تفتدوا لعلاكم ... فتى غير مردود اللسان أو اليد
يطاعن عن أعراضكم بلسانه ... ويضرب عنكم بالحسام المهند
ولو لم تنل نفسى ولاءك لم أكن ... لأوردها فى نصره كل مورد
فلا ، وأبى ، ما ساعدان كساعد ... ولا ، وأبى ، ما سيدان كسيد
فلا يحرمنى الله قربك إنه ... مرادى من الدنيا ، وحظى ، ومقصدى

ثم يعتز أبو فراس بنفسه وبطولته ، وحسن جهاده الروم ، فيذكر سيف الدولة بأنه لو لم تكن صلة القرابة بينهما قوية قريبة ، لكانت صيانة الإسلام تستدعى الاحتفاظ بأبى فراس يحوطه ، وينوب عن الأمير فى الدفاع عنه :

فإن لم يكن ود قريب نعدّه ... ولا نسب دون الرجال قراب
فأحوط للاسلام ألا يضيعنى ... ولى عنه فيه حوطة ومناب

ولكن الأمير لا يفديه ، وتمضى الأيام والشاعر يوالى رسائله ، يستبطئه ويشكو إليه هذا الأسر المرير . فهل كان إغضاء سيف الدولة عن الإسراع إلى فدائه ناشئا عن شواغل ألهت الأمير عن ابن عمه ؟ أو أنه لم يرد أن يخصه بالفداء حتى يكون هناك فداء عام لأسرى المسلمين ؟ أو أن إهماله كان مقصوداً من الأمير ؟

أما أنا فلا أشك فى أن سيف الدولة لم يسرع إلى فك إسار ابن عمه قصدا ،

obeikandi.com

ولا أشك فى أن قلب سيف الدولة كان متغيراً على أبى فراس ، ولا أشك فى أن الصفاء الذى كان يسود علاقتهما قد شابه شىء من الكدر والجفاء . ودليلنا على ذلك هذا الشعر الكثير ، الذى يحدثنا عن عتاب سيف الدولة ، وما كان يبذله الشاعر من الجهد فى رد هذا العتاب ، ولست أعرف السبب الحقيقى الذى دفع الأمير إلى العتب على ابن عمه ، ولكن مما لا شك فيه أن بعض أصدقاء أبى فراس قد غدر به ، و بعض حساده قد شمت فيه ؛ فمن المعقول أن يكون هؤلاء وأولئك قد انتهزوا فرصة أسره ، وأوغروا صدر الأمير عليه ، ولا أدرى بم ؟ ولا نصيب هذه التهمة من الصحة . وكل ما أستطيع إثباته هو أن سيف الدولة قد عتب على أبى فراس ، وأن الشاعر قد بذل جهده فى أن يرد هذا العتب ، وأن يستعطف قلب الأمير بأرق ما عرف من أساليب الاستعطاف ، فهو يقول له :

أمن بعد بذل النفس فيما تريده　　أثاب بمرِّ العتب حين أثاب ؟!
فليتك تحلو ، والحياة مريرة　　وليتك ترضى ، والأنام غضاب
وليت الذى بينى و بينك عامر　　و بينى و بين العالمين خراب

و يظهر أن الأمير قد عنف فى العتب عليه وجفاه ، ولكن أبا فراس لم يقابل هذا العتب إلا بالصفح ، ولم يجازه عن الجفوة إلا بالرفق ، يتلطف معه ، فلا يحاسبه على الجفاء ، ولا يعتقد بالظاهر ما دام واثقاً منه بالوفاء الصحيح :

لم أؤاخذك بالجفاء ؛ لأنى　　واثق منك بالوفاء الصحيح

وأحياناً يقسو على سيف الدولة ، و يثور ، و يشتد فى الثورة ، حتى يقول :

زمانى كله غضب وعتب　　وأنت علىَّ والأيام إلب
وعيش العالمين لديك سهل　　وعيشى وحده بفناك صعب
وأنت ، وأنت دافع كل خطب　　مع الخطب الملم علىَّ خطب
إلى كم ذا العتاب ، وليس جرم　　وكم ذا الاعتذار ، وليس ذنب ؟!

ولـكنه لا يلبث أن يثوب إلى الرقة واللين ، يستل بهما ما فى قلب الأمير ، فيقول له :

فقل ما شئت فىّ ، فلى لسان ملئٌّ بالثناء عليك ، رطب
وعاملنى بإنصاف وظلم تجدنى فى الجميع كما تحب

وكان من أسباب عتب سيف الدولة عليه ، وتنكره له ، أن أبا فراس كان يستبطئه ، ويعاتبه على هذا البطء ، فيبادر أبو فراس باسترضاء الأمير ، ويرسل إليه :

تنكر سيف الدين ، لما عتبته وعرض بى ، تحت الكلام ، وقرعا
فقولا له : يا صادق الود ، إننى جعلتك مما رابنى الدهر مفزعا
فلو أننى أكننته فى جوانحى لأورق ما بين الضلوع ، وفرعا

ومما لا ريب فيه أن هذا التنكر ، قد أمض أبا فراس ، وآلمه ، وبذل جهداً ليس باليسير فى استرضاء أميره ، لأنه ما دام عاتبا ، لن يستطيع أن يظفر بالحرية التى يشتهيها :

وهبت شبابى ، والشباب مضنة لأبلج من أبناء عمى أروعا
أبيت معنى من مخافة عتبه وأصبح محزونا ، وأمسى مروعا

وإذا كان بعض أصدقائه قد غدر به ، وحساده قد أوغروا صدر الأمير عليه ، فإننا نجد فى شعر أبى فراس ثورة جامحة ضد الصداقة الكاذبة ، والمودة المتقلبة ، وهجاء مرا لهؤلاء الحساد الذين يظنون أن فى وسعهم أن يغنوا غناءه ؛ وان يملئوا مكانه . ولقد عظم شعوره بالغدر ، حتى ليحسب أن الدنيا كلها غادرة ، وأنه لا عهد لصاحب ، ولا وفاء لصديق :

تناسانى الأصحاب إلا عصيبة ستلحق بالأخرى غداً ، وتحول
أقلب طرفى لا أرى غير صاحب يميل مع النعماء ، حيث تميل
أكل خليل ، هكذا ، غير منصف ؟! وكل زمان بالكرام بخيل ؟!

obeikandi.com

أما حساده فكان يسخر بهم ، وكان شدة شعوره بنفسه يوحى إليه ، كما ذكرنا ، بأن له حسادا كثيرين ؛ وكان عندما يذكر هؤلاء الحساد ، لا يلبث أن يرد كيدهم فى نحورهم ، فيذكر أنه لم يلق فى الأسر هوانا يسرهم ، ولم يصادف إلا رفعة و إجلالا ، ثم يمضى معهم فارضا لهم تحقيق آمالهم فيه ، تلك الآمال التى تدور حول موته ، فيسائلهم أيشمتون به ، والموت نصيبهم لا محالة ، ترى ذلك الخاطر فى قوله :

من كان سر بما عرانى ، فليمت ضرا وهزلا
لم أخل فيما نابنى من أن أعز ، وأن أجلا
رعتُ القلوب مهابة وملأتها فضلا ونبلا
ما غض منى حادث والقرم قرم حيث حلا
أنى حللتُ فإنما يدعونى السيف المحلى
فلئن خلصت فإننى شرق العدا طفلا وكهلا
ما كنت إلا السيف زاد على صروف الدهر صقلا
ولئن قتلت فإنما موت الكرام الصيد قتلا
لا يشمتن بموتنا إلا فتى يفنى ويبلى
فإذا تيقن أنه فى إثرنا رحلا فرحلا
فَلْيَلهُ عن ذاك السرور ، فإنما يبلى ونبلى
يغتر بالدنيا الجهول ، وليس فى الدنيا مملا

ولم يقف الأمر عند أصدقاء غادرين ، وحساد واشين ، أوغروا صدر الأمير عليه ، بل كان بعض أهله يكره خلاصه من الأسر ، و يتمنى هلاكه ، ويدس له عند سيف الدولة ، وقد عاتبهم أبو فراس عتاباً رقيقاً ، فيه فخر بنفسه ، وتفان فى الوفاء لهؤلاء الأقرباء ، الذين لا يعرفون حق القرابة ، يقول لهم :

تمنيتم أن تفقدونى ، وإنما تمنيتم أن تفقدوا العز أصيدا
أما أنا أعلى من تعدون همة وإن كنت أصبي من تعدون مولدا
إلى الله أشكو عصبة من عشيرتى يسيئونني فى القول غيباً ومشهداً
وإن حاربوا كنت المجن أمامهم وإن ضاربوا كنت المهند واليدا
وإن ناب خطب ، أو ألمت ملمة جعلت لهم نفسى وما ملكت فدا
يودون ألا يبصروني سفاهة ولو غبت عن أمر تركتهم سدى
فعالى لهم ، لو أنصفوا ، فى جمالها وحظ لنفسى اليوم ، وهو لهم غدا

أحمل أبو فراس لسيف الدولة موجدة لأنه أصغى إلى الوشاة ، ولم يسرع إلى فدائه ؟ ليس فى أخبار أبى فراس ، ولا فى شعره ، ما يدل على أنه حمل هذه الموجدة له فى قلبه ، اللهم إلا هذا البيت :

وأصبر ، ما لم يجلب الصبر ذلة وألبس للمذموم حلة حامد

فقد يفهم منه أن الزمن قد اضطره إلى مدح سيف الدولة ، بينما قلبه يذمه ويهجوه ، ولكنى أستبعد أن يكون ذلك مراد أبى فراس ، ولعله كان يشكو من أن حياة الأسر ، قد دفعته إلى حمد أناس ، لا يرى مدحهم حقاً ، أما سيف الدولة فكل شعر أبى فراس فيه فى الأسر ، يحمل أصدق آيات الوفاء ، وأعمق عواطف الإعجاب ، يقول له :

شريتك من دهرى بذى الناس كلهم فلا أنا مبخوس ، ولا الدهر باخس
وملكتك النفس الكريمة طائعاً وتبذل للمولى النفوس النفائس

وظل أبو فراس طول مدة أسره وفيا لابن عمه ، وإن كان فى أعماق قلبه متألما منه ، وها هو ذا يسمع أن الروم قد جمعوا جموعهم ، يريدون غزو سيف الدولة ، فلا يلبث الأسير أن يرسل إلى الأمير بنبأ ذلك الغزو ، ويحمس جنده ، ويذكر لهم تاريخ آبائهم المجيد المليء بالنصر المؤزر ، وهنا تجيش فى نفس الشاعر ذكريات عنيفة ، فيأسى على أنه لا يأخذ مكانه بين الصفوف ، ولا يحطم سيفه فى صدر

obeikandl.com

عدوه ، ولنستمع إليه يكتب إلى ابن عمه بخبر الجيش الزاحف :

سيف الهدى ، من حد سيفك يرتجى يوم ، يذل الكفر للإيمان
هذى الجيوش تجيش نحو بلادكم محفوفة بالكفر والصلبان
ليسوا ينون ، فلا تنوا فى أمركم لا ينهض الوانى لغير الوانى

ولعله أراد أن يكون له نصيب فى المعركة ، وما دام لا يستطيع أن يساهم بسيفه ، فليساهم بلسانه وقلمه :

إن يمنع الأعداء حد صوارمى لا يمنع الأعداء حد لسانى

وهكذا ظل وفيا لسيف الدولة ، وها هو ذا يشاركه فى الحزن على وفاة أخته ، فيرسل إليه بتعزية تحس فيها بألم ، غير متصنع ولا متكلف ، وتلمس فيه الصدق والإخلاص . والتعزية فى أسلوب هادىء لا مبالغة فيه :

بى بعض مابك من حزن ومن جزع وقد لجأت إلى صبر فلم أجد
لم يمنعنى بعدى عنك من حزن هى المؤاساة فى قرب وفى بعد
لأشركنك فى البأساء إن طرقت كما شركتك فى النعماء والرغد
وأمنع النوم عينى أن تلذ به علماً بأنك موقوف على السهد

هذا ، ولست أدرى الوسيله التى كان يرسل بها أبو فراس رسائله إلى الشام ، وفى هذه الرسائل مالا يريد الروم أن يطلع عليه سيف الدولة ، وأستبعد أن يكون أبو فراس قد أنشأ هذه الرسائل ليحتفظ بها لنفسه .

وبعد . فهل عزم سيف الدولة على أن يمهل أمر أبى فراس ، واستمع إلى قول الواشين ، وصمم على ألا يفديه ؟

يظهر أن سيف الدولة قد اقتنع بعد حين ببراءة ابن عمه ، وأنه عزم على أن يفديه ، ووعده بذلك . وكانت قصائد أبى فراس تتعجله ، وفى ديوانه أن سيف الدولة كتب إليه يعتذر من تأخير أمره ، وتسويفه له ، فكتب إليه أبو فراس :

بالكره منى واختيارك ألا أكون حليف دارك

obeikandl.com

يا تاركى ، إنى لشكرك ، ما حييت ، لغير تارك

ولسنا ندرى متى عزم سيف الدوله على فدائه ، ولـكنا نعلم أن أبا فراس ظل فى الأسر أربع سنين ؛ ويظهر لى أن ظن من ظن أن تأخير فداء أبى فراس يعود إلى تشدد الروم ، وأنهم كانوا يريدون الاحتفاظ به أسيرا لجلالة قدره ، وشدة بأسه ، يظهر لى أن هذا الظن ليس له ما يسنده ، بل على العكس يروى ابن خالويه أن الروم قد عرضوا عليه الفداء فى أول الأسر ، فى مقابل إطلاق سراح ابن أخت ملـكهم ، وليس فى شعر أبى فراس ما يشير إليه ، فتأخير الفداء يعود إلى سيف الدولة وحده .

أثرت هذه الحياة السقيمة ولا ريب فى جسم الأسير ، فملأ الشيب رأسه ، وكان الشيب قد زاره وهو لا يزال حدثا ، لم يزد على العشرين ، وانهارت صحته ، حتى ليخيل إليه أنه بعد إطلاق سراحه ان يستطيع أن ينال من لذائذ الحياة شيئا :

وهأنا قد حـلى المشيب مفارق وتوجنى بالشيب تاجا مرصعا

فلو أننى مـكنت مما أريده من العيش يوما لم أجد فيه موضعا

وبرغم مضى وقت طويل على أبى فراس فى الأسر لم يفقد الأمل فى النجاة ، وكثيراً ما كان يناجى نفسه بهذا الأمل البعيد ، ويتخيل هذه الحرية التى ستدنيه من آله ، وتعيد إليه حياة ، يكون له فيها مآثر ، فى ميدان الحرب ، وميدان الـكرم ، وميدان المعالى :

فإن عدت يوما عاد للحرب والندى وبذل العـلا والمجد أكرم عائد

وقد حقق الله أمله ، ففى شهر شوال — على ما يظهر (١) — سنة خمس وخمسين وثلاثمائة « تم الفداء بين سيف الدولة والروم ، وسلم سيف الدولة ابن عمه أبا فراس بن حمدان (٢) » .

(١) فى هذا الشهر كانت المعركة بين الروم وسيف الدولة ، فيـكون الفداء قد تم فى هذا الشهر أو فى الشهر الذى يليه .
(٢) الـكامل لابن الأثير جـ ٨ ص ٢٢٦ .

وهنا تبدو ظاهرة قوية أحب أن أسجلها ، تلك هى أن أبا فراس لم يسجل فى شعره شكر سيف الدولة على هذا الفداء ، وأن الشاعر قد استقبل الحرية التى طال انتظارها بشعر قليل ، لم يزد على أبيات ستة ، هى :

ولله عندى فى الإسار وغيره ... مواهب لم يخصص بها أحد قبلى
حللت عقوداً أعجز الناس حلها ... وما زال لا عقدى يرام ولا حلى
إذا عاينتنى الروم كفر صيدها ... كأنهم أسرى لدى ، وفى كبلى
وأوسع ، أياما حللت ، كرامة ... كأنى من أهلى نقلت إلى أهلى
فقل لبنى عمى ، وأبلغ بنى أبى ... بأنى فى نعماء يشكرها مثلى
وما شاء ربى غير نشر محاسنى ... وأن يعرفوا ما قد عرفتم من الفضل

وهى أبيات تدل على أن أبا فراس قد بذل جهداً كبيراً فى تحقيق هذا الفداء . وأحب أن أقف وقفة نتبين فيها ما ادعاه : من أن الروم كانوا يعاملونه معاملة حسنة ، حتى لكأنه نقل من أهل إلى أهل ، وأنهم قد اعترفوا بفضله وهابوه ، وابن خالويه يروى عنه طرفا من تمييزه بالمعاملة الطيبة ، فهم لم ينزعوا عنه ثيابه ، كما ينزعون ثياب الأسرى ، وفى ذلك يقول :

يمنون أن خلوا ثيابى ، وإنما ... علىّ ثياب ، من دمائهم حمر

قال أبو فراس (١) : « لما حصلت بالقسطنطينية أكرمنى ملك الروم إكراما لم يكرمه أسيراً قبلى ، وذلك أن من رسومهم ألا يركب أسير فى مدينة ملكهم دابة قبل لقاء الملك ، وأن يمشى فى ملعب لهم ... مكشوف الرأس ، ويسجد فيه ثلاث سجدات ، أو نحوها ، ويدوس الملك رقبته فى مجمع لهم ... فأعفانى من جميع ذلك » . ولعل أبا فراس لاقى العنت فى أول عهده بالأسر عند ما كان فى خرشنة ، فلما مضى إلى القسطنطينية لم يعامل بعنف ولا بقسوة ، ولا سيما أن سيف الدولة

---

(١) ديوان أبى فراس ص ٣٢٣ .

كان تحت يده ابن أخت الملك ، ولهذا لم نسمع من أبي فراس حديثا عن قسوة في معاملة آسريه ، إلا وهو فى خرشنة . ومهما يكن من أمرفلم يكن مثل أبى فراس ممن يطيق حياة فيها حيلولة بينه و بين أمانيه .

ولعل السبب فى قلة شعره الذى استقبل به الحرية ، يعود إلى أن هذا الأمل قد فاز به الأسير بعد تطاول الزمن ، وفوات وقته ، و إن النفس لتستقبل الأمل يجىء بعد فوات وقته بهدوء وفتور .

obeikandl.com